القرن السادس

6

1 - أبو الطاهر بن عوف
2 - أبو بكر الطرطوشي
3 - سند بن عنان
4 - الشريف الإدريسي
5 - الأصفهاني
6 - يوسف بن عبد المؤمن
7 - ابن طفيل
8 - السهروردي
9 - الخيوشاني
10 - القنائي
11 - ابن رشد
12 - القاسم الشاطبي
13 - أبو الفرج الجوزي
14 - الزمخشري
15 - فخر الدين الرازي

هـذا القـرن

وتستهل المائة الهجرية السادسة بعام 1107 ميلادية ؛ حيث تتصدر هذا القـرن الهجري العديد من الأحداث الكبرى التى تهز العـالم الإسـلامى . **وأولهـا** : انقـسام الدول الإسلامية التى تكونت بفعل الانقـسام أيـضا إلى دويـلات وإمـارات مثـل : الدولة السلجوقية التى انقسمت على نفسها إلى : إمارات ودويـلات ، الأمـر الـذي جعل الدولة الخوارزمية تفكر في أن تحل محلها ، ولكـن لم يـتم للأخـيرة مـا أرادت . وانتهت الدولة الغزنوية لتقوم على أنقاضها الدولـة الغوريـة . وفي المغـرب : زالـت دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين . وانتهت في مصر الدولة الفاطمية ،وقامـت الدولة الأيوبية .

ثاني هذه الأحداث : استرداد صلاح الدين الأيـوبي لبيـت المقـدس مـن قبـضة الصليبيين ، فأعاد للإسلام كرامته باسترجاع ثالث الحرمين وأولى القبلتين .

ثالثها : تدهور الحالة العلمية في المشرق العربي ؛ بسبب العداء الشديد للفلسفة، وفي الوقت نفسه تقدم العلوم في المغرب العربي ؛ حيث وجـد في بلدانـه مـن يحـاول التوفيق بين الدين والفلسفة من العلماء كابن رشد . وبالتالي ، أقبل الناس عـلى هـذه العلوم ، وفي مقدمتها الفلسفة .

رابعها : ازدياد خطر التصوف بازدياد مظاهره كالخانقـاوات التـى بـدأ النـاس يقدمون لها النذور . وأصبحت قبور رجال الصوفية مزارات للتبرك وطلب الحاجة. وهذه من صور الجهل والتخلف . ساعد على ذلك ظهور قطبين كبيرين من أقطـاب الصوفية هما : «الرفاعى» و«الجبلى» في هذا القرن بالـذات ، ولعلهـما كانـا لا يبغيـان للأمة هذا التخلف ، ولكنه حدث على أي حال .

خامسها : انشغال العالم الإسلامي في انقسامات السياسة ، وانصرافه عن التفكير في الخطر المحدق به ، والذي كانت أوروبا تتولى كبره ، وتجهز له بعد هزيمتها باسترداد بيت المقدس.

سادسها : سعي أوروبا عن طريق دهاقينها من المستشرقين والمبشرين إلى معرفة العالم العربي الإسلامي ، ونقل كل ما يمكن من آثاره الفكرية لإقامة نهضتها .

لذلك .. أصبحت هناك حاجة إلى رجل يجدد دين الأمة في هذا القرن ، مجدد يستطيع أن يعالج كل هذه النكسات السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي مقدمتها : تكفير الأمة الذي انقسم بفعل العداء المفتعل بين الدين والفلسفة . بين النقل والعقل. وكان «ابن رشد» هو ذلك الرجل المناسب ، يصحبه رجال في مقدمتهم : «يوسف بن عبد المؤمن» أحد ملوك الموحدين الذي اهتم بالعلم والعلماء . و«الإدريسى» صاحب النظريات العظيمة في علم الجغرافيا ، تلك التي مكنته من كشف الحقائق الأساسية لهذا العلم ، ومنها : كروية الأرض . و«فخر الدين الرازي» الذي تفوق على أهل زمانه في علم الكلام - كما يذكر ابن خلكان - وكذلك ظهر «أبو بكر الطرطوشي» المجدد ، و«القاسم الشاطبي» ابن شاطبة بالأندلس الوافد إلى الإسكندرية.

وهذا القرن الذي عاش فيه هؤلاء ، كان يثير في الأذهان معاني مرذولة ؛ فالإنسان فيه ساذج الإيمان ، هدفه في الحياة : الخلاص من الحياة نفسها ليسعد بنعيم الآخرة، والعقل صار مستعبدا بسلطة خارجة عنه لا يفكر إلا في حدودها، والفلسفة لا ترتبط بحياة الناس وحل مشكلاتهم ، بقدر ما تحرص على خدمة اللاهوت وصكوكه ، والمعرفة واحدة تعمل لهدف واحد هو : سبيل النجاة ، والثقافة مقصورة على نفر هزيل من الرهبان المحدودي العقول بحكم توجيههم ووظائفهم في الحياة... وإذا كان هذا هو الحال في دار الإسلام بوجه عام في العصور الوسطى ، فالحال في الشرق الإسلامي بوجه خاص لا يختلف كثيرا عن هذه الحالة العامة .

فالفلسفة في محنة ، مصدرها : موقف «الإمام الغزالي» الذي هاجم الفلاسفة السابقين عليه ، واهتم بالتصوف والشريعة حتى خيل للناس أن الفلسفة تعارض الدين ، وتضخم هذا المعنى بعد أن استهدفت الفلسفة لهجمات علماء الكلام من أشاعرة ومعتزلة ، وتعمدهم الخلاف في نظرتهم إلى الأشياء ، فكل فريق من الفريقين يدعي لنفسه حق تأويل الدين ، ويدعوه هذا الحق إلى تكفير غيره لمجرد الخلاف في الرأي ، وانعكست هذه النظرة من الشرق الإسلامي على الغرب . ففي قرطبة مثلا : الطوائف والملل اعتبرت الفلسفة رجسا من عمل الشيطان ، حتى الفلسفة اليونانية والمذهب الأرسطي ، وغيره من المذاهب الفلسفية أصبحت حلما يراود الخاصة ، ويثير الخوف لدى الكافة ،و صار مدى تطور التفكير مرتبطا بمقدار ما ينكشف له من جوانب التراث الفلسفي اليوناني .

هذا .. إلى جانب أن الظروف السياسية كانت لا تقل سوءا عن الحالة الفكرية أو الاجتماعية ؛ فقد خضعت الأندلس لنوع من الحكم الديني المتزمت، إبان عهدي: المرابطين ، والموحدين .

وباختصار .. كان العالم الإسلامي في حاجة إلى أكثر من مجدد ... وهو ما تهتم به الصفحات التالية .

أبو الطاهر بن عوف

الشيخ الصالح: « أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عبد الرحمن ابن عوف، والذي ينتهى نسبه إلى الصحابي الجليل : عبد الرحمن بن عوف . يعد من مجددي القرن السادس الهجري؛ حيث مات سنة 581 هـ. وهو صاحب أول مدرسة سنية نظامية أنشئت في مصر .

كان من العلماء الأتقياء الذين يتصفون بالعلم والورع ، حتى قال عنه «جلال الدين السيوطى» في تاريخه: « كان صدر الإسلام في زمانه ، تفقه على يديه الكثيرون، سمعوا منه ، وملئوا الدنيا علما أخذوه عنه » . وقال عنه «أبو الحسن بن الحميري» : «كان ابن عوف رحمة الله عليه إمام عصره ، وفريد دهره ، في الفقه على مذهب الإمام مالك ، وعليه كانت تدور الفتوى ، وجمع - إلى ذلك - الورع والزهد ، وكثرة العبادة، والتواضع ، ونزاهة القول والفعل ، وصدق القلب والعقل » .

ترجم لهذا الشيخ الجليل : «أبو الطاهر بن عوف» . واحد من المؤرخين ، هو «ابن سليم الهمذاني» ، فسجل الكثير من مراحل حياته ، وجوانب علمه وفضله ، وهو ما ينقله لنا الدكتور «جمال الدين الشيال» في كتابه: (أعلام الإسكندرية) فيقول: «كان ابن عوف من العلماء الأعلام ، ومشايخ الإسلام : ظاهر الورع والتقوى ، كما روى عنه الفقه والتفسير «ابن المقدسي» » .

ويستطرد «ابن سليم الهمذاني» في ترجمته للشيخ أبي الطاهر بن عوف ما ينقله الدكتور «جمال الدين الشيال» فيقول : « وكان بيت أو مقام ابن عوف بثغر الإسكندرية بيتا كبيرا ، اشتهر بالعلم وكان فيه جماعة من الفقهاء ، اجتمع منهم

سبعة في وقت واحد ، كانوا إذا دخلوا مجتمعا قيل لهم : مرحبا بالفقهاء السبعة ، تشبيها لهم بالأئمة السبعة في المدينة المنورة » .

والتقدير هنا لا ينصرف إلى هؤلاء العلماء السبعة بقدر ما ينصرف إلى أستاذهم: أبي الطاهر بن عوف ، تقديرا لفضله وعلمه الذي لقنه لهؤلاء العلماء السبعة في حياته.

وإلى جانب التدريس ، اشتغل ابن عوف بالتأليف ، فوضع شرحا عظيما في الفقه عرف بالشروح الصوفية ، ويعد من أمهات المصادر التي يرجع إليها الدارسون والباحثون في الفقه الإسلامي ، إذ يقع في ستة وثلاثين مجلدا .

ولا يقل الجانب السياسي في حياة أبي الطاهر بن عوف عن الجانب العلمي ، فقد كانت له مواقف مشهودة له سجلتها كثير من الكتابات ، خاصة تلك التي كانت تعلي من شأن العلماء أمام السلاطين والأمراء . ومن هذه الكتابات الموثوق بها كتاب: (أعلام الإسكندرية) للدكتور «جمال الدين الشيال» ، الذي يحدثنا عن جانب من تاريخ ابن عوف السياسي في عهد كل من الدولتين : الفاطمية والأيوبية ، فيقول: «وشهد ابن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية ، وقيام الدولة الأيوبية : دولة صلاح الدين الأيوبي بمصر سنة 567 هـ وقد زار صلاح الدين الأيوبي الإسكندرية، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس ابن عوف، وسمعوا عليه (موطأ الإمام مالك) بروايته وشرحه وتفسيره » .

وتذكر بعض الكتابات الأخرى : أنه كان لابن عوف مكانة خاصة عند السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فيشير إلى ذلك «الصفدي» مؤكدا مكانة هذا العالم الجليل عند السلطان ، ذاكرا واقعة استفتاء صلاح الدين الأيوبي لابن عوف عن جواز أن يكون القاضي أعمى ، وتقديرا له ولفتواه ، وكتب صلاح الدين إليه يسأله بخط يده ، وليس بخط يد أحد من وزرائه أو عماله . وحين وصلته الفتوى عمل بها على الفور، ثقة منه بعلم وفضل هذا الرجل الجليل .

ولابن عوف- عدا ذلك- أفضال أخرى ؛ فإليه يرجع الفضل في تحديد الصادر إلى ثغر الإسكندرية ، وهو ضريبة تجارية تدفع على كل ما يخزن من بضائع في الميناء ، رتبه لفقهاء وعلماء الإسكندرية كرواتب تصرف كل شهر، وجعل لها ناظرا وشهودا، وأوقفها عليهم ، وعلى ذريتهم من بعدهم .

غير أن الفضل الأكبر الذي يرجع إلى الشيخ ابن عوف هو في إنشائه لأول مدرسة نظامية سنية في مصر . أقامها خصيصا ليكون هو صاحبها ومعلمها في آن واحد .

وعن هذه المدرسة وأثرها وصاحبها ، تسجل الدكتورة «سعاد ماهر» في كتابها : (مساجد مصر) قائلة : «ونستطيع القول في ثقة واطمئنان بأن مدينة الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس ، وأن أول أستاذ نظامي متفرغ لممارسة هذه المهنة هو : الشيخ أبو الطاهر بن عوف » .

وقد حدد «القلقشندي» من المجددين موقع هذه المدرسة من الإسكندرية فقال: «وخرجت أوامر «الوزير رضوان» بإنشاء (المدرسة الحافظية العوفية) بهذا الثغر المحروس ، أي : الإسكندرية بشارع المحجة » .

وقد حقق الدكتور الشيال موقع هذا الشارع اعتمادا على النصوص التاريخية ، وفي مقدمتها : النص الأخير للقلقشندي ، فتوصل إلى أنه هو : شارع أبي قير الحالي .

وقد أورد القلقشندي في تاريخه المرسوم الصادر بتعيين ابن عوف شيخا لهذه المدرسة ، التي عرفت فيما بعد : المدرسة الحافظية العوفية ، نسبة إلى أبي الطاهر ابن عوف .. وتخليدا لذكراه .

* * *

أبو بكر الطرطوشي

أبو بكر الطرطوشى من علماء وفقهاء قليلين ، عرفوا قيمة العقل في العصور الوسطى ، ولذلك اعتبره المؤرخون من مجددي الإسلام في القرن السادس الهجري ؛ حيث يحدثنا التاريخ : أنه حين دخل الإسلام الأندلس أثر تأثيرا عظيما في أهلها ، فنقلهم من ظلام وجهالة العصور الوسطى إلى مشارف المدنية وحضارة العصر الحديث ، ولم يقتصر تأثير الإسلام على المنطقة التي وجد بها وهي الأندلس، وإنما امتد كذلك إلى غيرها من البلاد الأوروبية ، مثل : إيطاليا ، وفرنسا ، في أوروبا ... وغيرها. كذلك لم يقتصر تأثيره في الأندلس على علوم بعينها كالفلسفة والفيزياء والرياضيات والآداب والفنون، وما يتفرع عن هذه العلوم . وإنما امتد إلى علوم أخرى دينية كالتصوف، حيث كان للعلماء المسلمين في الأندلس أثر في غيرهم من الأوروبيين . وعلى سبيل المثال : نجد «ابن عياد الرندي» أحد أتباع الطريقة الشاذلية التي أسسها «أبو الحسن الشاذلي» والذي له تأثير مباشر على الصوفي الإسباني «يوحنا الصليبى» ، كما أن للمتصوف العظيم « محيي الدين بن عربي » تأثيره المباشر في تصورات الإيطالي «دانتي» التي تضمنتها رائعته الخالدة (الكوميديا الإلهية)، وغيرها من تأثيرات دينية ، وهذا يعني: أن الإسلام كان في تطور دائم في كل جوانب المعرفة الإنسانية ، مادية كانت أو روحية.. ومن العلماء الذين اشتهرت بهم الأندلس: «ابن حزم ، وابن باجة»، وتبعهم علماء يتقدمهم إمامنا «أبو بكر الطرطوشي» المدفون بالإسكندرية .

إذا .. فإمامنا هذه المرة قادم من الأندلس ، وبالتحديد من مدينة طرطوشة التي تقع على سفح الجبل ، قريبا من بلنسية وقرطبة ليدفن بالإسكندرية بعد أن قضى حياة

حافلة بالعلم والفضل والفقه ، ناقلا إلى المشرق ما تلقاه من علم عن «ابن حزم والباجي» شيخ علماء الأندلس وغيرهما من العلماء الذين برزوا في الأندلس الإسلامية .

لكن قبل وصول الإمام الطرطوشي إلى الإسكندرية ، واستقراره بها حتى آخر أيامه ، تخللت حياته أحداث مهمة ، تبدأ منذ أن تلقى العلم في المسجد الكبير بمدينة طرطوشة بالأندلس على أيدي عدد من المعلمين الذين اكتشفوا فيه استعدادا مختلفا عن غيره في تقبل العلوم .

ولم تشبع مدينة طرطوشة وشيوخها وعلماؤها من نهم إمامنا إلى المعرفة الدينية ، فتركها راحلا إلى أكبر مدن الأندلس وقتئذ : «سرقسطة» ، حيث التقى بعالمها الكبير القاضي «أبي الوليد الباجي» ، وعنه استطاع أن يجمع علمه الواسع كأكبر علماء الأندلس ، كذلك علم ابن حزم الذي وضعه من قبل في قلب الباجي ليكون خليفة من بعده في مناقشة الموضوعات الدينية والعلمية التي تنشأ وتتجدد بين حين لآخر ، فكان أبو بكر الطرطوشي خير تلميذ للباجي وأستاذه «ابن حزم» الأندلسي.

ولعل إقبال الإمام الطرطوشي على العلم والتفقه فيه نابع من أصالته العربية ؛ حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن الإمام أبا بكر الطرطوشي المشهور في أوروبا «بأبي رندقة» ، ينتهي نسبه إلى قريش في عائلة «فهد القرشي» ، المعروفة بأصالتها في العلم والأدب والنسب بين القبائل .

وأما اسم أبي رندقة الذي اشتهر به خاصة في المصادر الأوروبية ، فقد خلعه عليه الأوروبيون أنفسهم ، وذلك بعد أن اتسع علمه ، حتى عم أرجاء البلاد ، فأراد الأوروبيون أن ينسبوه إليهم ، حتى يقل أتباعه من جراء التشكيك في نسبه ، لكن هذا الاسم الذي خلعه عليه الأوروبيون لا دخل له بهذا الإمام الجليل ، كما تؤكد ذلك بعض الروايات والكتابات الحديثة ، وفي مقدمتها : كتابات «الدكتورة سعاد

ماهر» في كتابها : (مساجد مصر) ، و«الدكتور جمال الشيال» في كتابه : (أعلام الإسكندرية) ، الذي يؤكد فيه عروبة وعلمية أبي بكر الطرطوشي .

يقول الدكتور الشيال عن : والد أبي بكر الطرطوشى : «كان عالما متفقها في الدين، ولذلك وجه ابنه أبا بكر هذه الوجهة العلمية الدينية التي أفادته فيما بعد».

معنى هذا : أن العلم في الدين والفقه كان متأصلا متوارثا أصيلا في أبي بكر وليس دخيلا .

وحين نضج علمه واكتمل ، اتجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج والاستقرار بمكة المكرمة ، والوقوف على ما تركه السلف الصالح من آثار علمية وفقهية . وهناك التقى بجلة من العلماء ، في مقدمتهم الإمام : «أبو إسحاق الشيرازي» وغيره من علماء التصوف . وقد سمع كثيرا من الشعر من شيوخه ، ورواه عنهم فيما بعد في كتابه : (سراج الملوك) مما يؤكد أنه كان يتمتع بحاسة نقدية أدبية عالية المستوى .

وغادر بغداد إلى الشام بعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة به ، تقوم على الزهد والسعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقضى الفترة التي عاشها في الشام يلقي على الناس علما هو خلاصة ما وصل إليه علماء المغرب في الأندلس . وعلماء المشرق في العراق ، وكان لعلمه مذاق خاص ، الأمر الذي أكثر من حوله الأتباع والمريدين ، أولئك الذين كانوا يفدون إليه رغبة في معرفة أمور دينهم ودنياهم ، وظل هكذا بينهم عالما وفقيها متنورا ، حتى توجه إلى الإسكندرية بمصر ، والتي كانت ملتقى المغاربة المتوجهين إلى الحج والعائدين منه ؛ فهي في الطريق إلى الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس .

لكنه في طريقه من الشام إلى الإسكندرية، توقف برشيد تحت إلحاح أهلها ، غير أن أهل الإسكندرية كونوا وفدا من علمائهم وأعيانهم وفقهائهم ليتوجه إلى رشيد ، ويلتقي الإمام الطرطوشي بهذا الوفد الذي يطلب منه التوجه إلى الإسكندرية ،

فيقبل ويبدأ الدرس وينشر العلم على مذهب الإمام مالك ، إلى جانب ما كان قد استفاده من علماء الأندلس وفقهائهم .

وقد أتاحت له حياة الاستقرار التي عاشها بالإسكندرية ، وترحيب واستقبال أهلها له الفرصة للقراءة والتأليف ، حتى قدم للمكتبة الإسلامية اثنين وعشرين مؤلفا في التفسير والفقه وعلم السياسة ، وفي الحكم وإدارة المجتمع والوقوف على مشاكله وأهمها كتاب : (سراج الملوك) .

وفي هذه الكتابات والأحاديث ، نلمح آراء أستاذه بالأندلس «أبي الوليد الباجي» .. تلك التي أودعها في قلبه أستاذه العظيم «ابن حزم» .. كما كان يردد دائما.. ومن هذه الآراء ما كان يردده في مجالسه في فضل العلم على حامله ؛ حيث يرى أنه لو لم يكن للعلم فضيلة سوى أن أهل الجهل يهابون صاحبه ويحترمونه، وأن العلماء يقدرونه ويحترمونه ، لكفى هذا سببا إلى السعي وراء العلم وطلبه ، فكيف إذا ببقية فضائله في الدنيا والآخرة ؟

ولو تدبر العالم في كل ساعاته : ماذا كفاه العلم من المذلة والغفلة ، من الهم بغية الحقيقة ، ومن الفرح بكشفها – عن طريق العلم – لضاعف من حمد الله عز وجل وشكره على منحه فضل العلم ، ولطلب أن يهبه المزيد منه ! وقال : إن الذي يبخل على الناس بعلمه أشد وأقسى من الذي يبخل عنهم بماله ؛ فالمال يمكن تحقيقه بأي الوسائل ، أما العلم فلابد لتحقيقه بوسيلة الفتح الرباني الذي يفتح به الله على عبده ، وبالعلم وحده تقترب من الخالق سبحانه وتعالى، ومنه ما يعينك على الوصول إلى رضاه . ومن أراد سعادة الدنيا وخير الآخرة فليقتد بهدي محمد – ﷺ – في علمه واحترامه وتقديره لأهل العلم ، وطلبه للعلم حتى وإن كان في الصين .

وعن فضل العقل : يحدثنا الإمام الطرطوشي فيقول : ليس هناك فضل يهبه المولى لعبده أعز وأجل وأكرم من فضل العقل ، فصاحب العقل هو الذي يعيش في

نعـيم دائم ؛ لأنه يستطيع أن يعامل الناس على قدر عقولهم . كمـا أمـرنا رسول الله - ﷺ - بتوجيه إلهي حيث قال : « **أمرت أن أعامل الناس بقدر عقولـهم** » . والعاقل هو الذي لا يغتبط بصفات تفوقه على الحيوانات والجمادات ، وهي التمييز الذي به يمكن أن يقارب الملائكة ... فمن قوي تمييزه ، واتسع علمه ، وحسن عمله فليسعد ويغتبط . حين لا يتقدمه إلا الملائكة ، وخيار الناس. وقول الله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ** ﴾[١] ولأن نهي النفس عن الهوى هو : ردعها ومنعها عن كل ما يغضب الله . ولأن في نهيه عن الغضب ردع النفس عن هواها ، وفي أمره عليه الصلاة والسلام أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ردع النفس عن أمور السوء ، وأولها الأنانية وحب الذات .

وهكذا .. كان الإمام أبو بكـر الطرطـوشي في كتاباتـه وأحاديثـه . حتـى تـوفي بالإسكندرية عام 520 هـ ، ليدفن هناك في مسجد بباب البحر ، كما يقـول المقريـزي في (خططه) .

❋ ❋ ❋

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١.

سند بن عنان

الشارح المفكر : سند بن عنان الذي تخصص في شرح فقه الإمام مالك : أحد الأئمة الأربعة في مجلدات عددها ثلاثون مجلدا ، لعلها تغنى عن الرجوع إلى هذا الفقه ، هذا الفقيه الجليل يعد واحدا من مجددي القرن السادس الهجري ، والذي يعتبر خير مثال للتلمذة الفكرية .

هذه التلمذة الفكرية في ثقافتنا العربية الإسلامية ، لها تقدير لم يتوافر لأي من الثقافات الأخرى ، فكلنا نعرف كيف تتلمذ الصحابة – رضوان الله عليهم – على الرسول – ﷺ – واتبعوه واهتدوا بهديه ، وصدعوا لتعاليمه بشكل جعل التابعين لهؤلاء الصحابة يقتدون بالسنة الشريفة ، ويصدقون بما قاله هؤلاء الصحابة . ونفس الأمر نجده عند تابعى التابعين، يحترمون ويتبعون من سبقهم من التابعين، ويقدرون ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال ، على اعتبار أنهم تتلمذوا على الصحابة الأجلاء . وهكذا نجد اللاحقين يتبعون السابقين ، مما يؤكد بصورة أو بأخرى كيف أن الثقافة العربية الإسلامية حلقة متصلة تعنى أشد ما تعنى بالتلمذة الفكرية، على اعتبار أن نتاج هذه التلمذة هم حملة مشاعلها ، ورواد تنويرها ، والمسؤولون عنها في مستقبل السنن .

ولعل هذه السمة التي تميزت بها الثقافة العربية الإسلامية في عصرها الذهبي ، لم تند عن ذاكرة أساتذتها من جيل الرواد في الثقافة العربية الحديثة ، فنراهم يعتنون بمن لحقهم من الأجيال ، ويسلكون في ذلك مسلكا علميا متحضرا ، فنجد أحدهم وهو الشيخ «أمين الخولي» أحد المجددين ، يعتبر أن التلميذ ينبغي أن يكون أفضل من أستاذه . فلا خير لأستاذ لا يعد تلميذه ليكون أفضل منه . وحجته في ذلك : أن

التلميذ يساوي تجربة أستاذه وعلمه ، مضافا إليها ما يحققه بعد ذلك من علوم ومعارف جديدة بشكل ربما لا يتوافر لأستاذه بحكم التطور والزمن . ولعل الشيخ أمين الخولي أجمل ذلك فيما يشبه المعادلة الرياضية ، حيث قال : إن (ت) أي : التلميذ تساوي (أ) أي : الأستاذ مضافا إليها (ز) أي: الزمن، فتصبح المعادلة : [ت = أ + ز] وهو دليل جديد على تقدير التلمذة الفكرية في ثقافتنا العربية الإسلامية .

وعند تأمل ملامح شخصية الشيخ سند بن عنان يمكن التعرف على معنى هذه التلمذة الفكرية في الثقافة العربية الإسلامية في عصرها الوسيط ، فقد كان سند ابن عنان أنبغ تلاميذ الشيخ أبي بكر الطرطوشي أحد المجددين وأقربهم إلى نفسه ، وكان كأستاذه مالكي المذهب ، وقد سمع منه ، ولازم حلقته سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم الوحيد ، بل أخذ عنه قبسا من أخلاقه وفضله أيضا ، وخاصة فلسفة الزهد التي أخذ بها الطرطوشي نفسه ، ولهذا وصفه ابن فرحون بقوله : «كان من زهاد العلماء ، وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقه على الشيخ أبي بكر الطرطوشي ... » .

وقد بلغ من صلاح وتقوى سند بن عنان أن هناك كثيرا من الروايات تحكي عن كراماته ، ولعلنا ننقل واحدة منها ، كان قد سجلها - بعد تحقيق - الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه : (أعلام الإسكندرية) ، حيث يذكر : « قال «تميم بن معين البادسي» - وكان من الفقهاء : رأيت رسول الله - ﷺ - في المنام ، فقلت : يا رسول الله ، اكتب لي براءة من النار . فقال لي : امض إلى الفقيه «سند» يكتب لك براءة . فقلت : ما يفعل ، فقال : قل له بأمارة كذا وكذا » . فانتبهت ، ومضيت إلى الفقيه سند ، فقلت له : اكتب لي براءة من النار . فبكى وقال : ومن يكتب لي براءة من النار؟ فقلت له الأمارة . فكتب الرقعة » .

هذه الرواية المحققة من المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال على ما فيها من مبالغة، إلا أنها تحمل دلالات على تقوى وصلاح هذا الرجل الصالح، وإلا فما معنى أن يسجل مؤرخنا الدكتور الشيال ما يؤكد هذه الرواية ، قال : « وقال ابن فرحون بعد رواية هذه القصة » : « ولما أدركت تميما الوفاة أوصى أن تجعل الرقعة في حلقة وتدفن معه » .

وروى الفقيه «أبو القاسم بن مخلوف بن جاره» : « أخبرني من أثق به أنه رأى الفقيه سند بن عنان في نومه في شكل مطمئن وعزيز» .

ويبدو أن سند بن عنان كان قد بلغ من العلم والفضل حدا جعل فقيه مصر في القرن السابع الهجري، وهو «تقي الدين ابن دقيق العيد» يصفه بقوله : « كان – أي : سند بن عنان – فاضلا من أهل العلم والنظر .. » .

وإلى جانب علمه وفضله في الفقه والتفسير والجوانب الدينية الأخرى ، فقد تميز بصفة أخرى ، هي : محبته للأدب شعرا ونثرا ، فقد كان كأستاذه الطرطوشي ، يقول الشعر أحيانا ، وقد روى ابن فرحون قصيدة له منها :

وزائرة للشيب حلت بمفرقي فبادرتها بالنتف خوفا من الحتف

فقالت :

على ضعفي استطلت وحدتي رويدك للجيش الذي جاء من خلفي

ولهذا .. لم يكن غريبا أن يشتغل سند بن عنان بالتأليف ، وأن ينتج في ذلك ما تذكره المراجع بالخير . وفي مقدمة ما ألف كتابه الضخم المعروف بـ : (المدونة) ، وهو من أمهات الكتب في شرح فقه الإمام مالك . وقد سمى هذا الشرح : (الطراز) وكان في ثلاثين مجلدا .

وعاش سند بن عنان حياته بين التفقه في الدين والتأليف فيه وكتابة الأدب .. حتى رشحته كل هذه المؤهلات كي يتولى مكان أستاذه الطرطوشى ؛ فيجلس في حلقته ومدرسته ، ويلقي دروسه . وقد قال ابن فرحون في ذلك : « وجلس سند ابن عنان لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبي بكر الطرطوشي ، وانتفع الناس به .. » .

وقد ظل سند بن عنان يدرس لطلابه واحدا وعشرين عاما بعد وفاة أستاذه الطرطوشى إلى أن توفي عام 541 هـ . ودفن بالقرب من قبر أستاذه الطرطوشى بمسجده باسمه ، لا يزال موجودا حتى الآن في شارع الباب الأخضر بالإسكندرية.

* * *

الشريف الإدريسي

عمدة الجغرافيين المسلمين ، وأحد مجددي القرن السادس الهجري « محمد ابن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي» سليل أسرة بني حمود التي حكمت جنوبي الأندلس وثغر سبتة في أوائل القرن الخامس الهجري ، والذي ولد عام 493 هجرية. لا يعرف مؤرخوه الكثير عن نشأته ، إلا أنهم - كما يذكر المؤرخ « محمد ابن عبد الله عنان» - يعرفون من إشارات وردت في مؤلفه بأنه درس في معاهد الأندلس ، وأنه قام برحلات عديدة في شبه الجزيرة الإسبانية ، بل ووصل في رحلاته شواطئ فرنسا وشواطئ إنجلترا ، كذلك عبر البحر إلى المغرب ، وتجول فيه شمالا وجنوبا . وهناك ما يدل على أنه عاش وقتا في مراكش ، ووقتا آخر في قسطنطينية ، واتجه إلى المشرق حيث آسيا الصغرى . ومن المحقق أن هذه الرحلات العديدة كان لها أثر في تكوين معلوماته الجغرافية ، التي ظهر أثرها فيما بعد في أبواب كثيرة من معجمه الجغرافي .. شهدت له فيها أوروبا .

وهنا .. يلعب القدر دوره في تطور حياة الإدريسى ، ذلك .. أننا نراه بعد ذلك في جزيرة صقلية يمثل في بلاطها ، ويخوض حياة علمية باهرة . ونحن نعرف أن جزيرة صقلية لبثت تحت حكم المسلمين زهاء قرنين منذ افتتحها الأغالبة سنة 264هـ (878م) ، وغدت في ظلهم حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، حتى إذا أدرك الوهن والانحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة توالت عليها حملات الفرنج ، حتى استعادها «الدوق روجر النورماني» سنة 464 هـ (1072م)، وانتهت بذلك دولة الإسلام في صقلية . وكان ذلك قبل مولد الإدريسي بنحو

عشرين عاما فقط . ولما توفي «الدوق روجر» خلفه في حكم الجزيرة ولده «روجر الثاني»، وهو المسمى : «رجار» في الرواية العربية . وكان أولئك النورمان ، من ذوي الأفق الواسع ، وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضاري ، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ، ومن ثم .. فقد استطاعت الجالية الإسلامية في صقلية ، أن تعيش في ظلهم آمنة متمتعة بشعائرها ونشاطها الاجتماعي والثقافي والمهني . وفي ظل هذا التسامح المحمود ، دعا الدوق روجر الثاني للعمل في بلاطه رهطا من العلماء المسلمين ، من الصقليين المحليين ، ومن إفريقية والمغرب ، وكان في مقدمة هؤلاء : الشريف الإدريسي .

متى وفد الإدريسى على بلاط الملك النورماني ؟ وفي أي ظروف تلقى دعوته ؟ هذا ما لا نعرفه بالضبط . ولكنا نعرف أن الدوق روجر الثاني حكم صقلية من سنة 1101 م ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاما . ومن المرجح : أن الإدريسى وفد على بلاط صقلية بين سنتي 1030م و1040 م . وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافي – فاستقبله الدوق روجر بترحاب ، وأغدق عليه عطفه ورعايته ، وعهد إليه بالمهمة العلمية العظيمة التي حققها الإدريسي بكتابة معجمه الجغرافي الخالد .

عكف الإدريسى على تأدية مهمته ، في جو يظله التفكير الحر المستنير ، والتعاون العلمي المثمر ، بين الشرق والغرب ، والارتفاع بالقيم العلمية والأدبية ، فوق الاعتبارات والمبادئ الرجعية ، التي كانت سائدة في تلك العصور في كثير من المجتمعات ، ومن ثم .. فإنا نجد العلامة المسلم ، يحدثنا في مقدمة كتابه عن الدوق روجر بمنتهى الإعجاب والإجلال على النحو الآتي : «وإن أفضل ما عني به الناظر، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ، محاسن الملك العظيم روجار ، المعتز بالله، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وأنطاكية ، إمام رومية ، الناصر للملة النصرانية ، إذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا » . ثم يشيد بقوته وعدله ، وعمله ، وسعة معارفه .

ويشرح لنا الإدريسي بعد ذلك الظروف التي عهد فيها إليه الملك «رجار» (روجر) بمهمته الجغرافية الكبرى ، فيقول : إن الملك ، لما اتسعت حدود مملكته وترامت ، أراد أن يعرف حقيقة أقاليمها ، وطبيعة مسالكها ، وحدودها برا وبحرا ، وما بها من البحار والخلجان والجبال ، فأمر بأن يؤتى بكتب الجغرافية العربية ، وأن تدرس بعناية . ولما تمت هذه الدراسة ، أمر بعد ذلك بأن تعد كرة عظيمة من الفضة الخالصة ، وأن تنقش فيها صورة الأقاليم السبعة بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها. والأقاليم السبعة هي: أساس التقسيم الجغرافي للعالم في العصور الوسطى. وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين. فأدى الإدريسي تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة الفضية خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ . وقد اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية ، وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوروبيين في العصور الوسطى ، ولا سيما العلامة البندقي «مارينو سانونو» (1260-1338م) الذي استرشد بها في معظم خرائطه . ويقال : إن الخريطة لم تستغرق من الفضة التي رصدت لها سوى الثلث ، وإن رجار وهب الجغرافي المسلم بقية الكمية الفضية ، وأعطاه فوق ذلك مبلغا كبيرا من المال ، وشحن سفينة من نفس المتاع .

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافي عام يرسم مطابقا للكرة الفضية ، يستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها ، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين ، وأماكنها ، وصورها ، وبحارها ، وجبالها ، ومسافاتها ، وخواصها ، وأجناس نباتها ، وما بها من الصناعات والتجارات ، وما يذكر عنها من العجائب ، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ، ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم . هكذا يلخص لنا الإدريسي في مقدمته محتويات : (الموسوعة الجغرافية الكبرى) ، التي عهد إليه الملك رجار بوضعها . وقد اعتمد الإدريسي في وضع هذه الموسوعة ، فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية التي جمعها من طوافه في شبه الجزيرة الإسبانية ، وشواطئ

فرنسا ، وغربي البحر الأبيض وجزائره ، والمغرب وآسيا الصغرى ، وما استفاده من بحوث الجغرافيين القدماء ، وابن خرداذبة ، والمسعودي ، وابن حوقل ، وقد اعتمد فضلا عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين الذين أوفدهم الملك رجار بإشارته وتوجيهه إلى مختلف البلدان الأوروبية ، ومنها : فرنسا وإيطاليا وألمانية وبلاد اسكندناوة ، وجزائر بحر الإدرياتيك ، وجزر الأطلنطيق ، وهي التي يتناولها الإدريسى جميعا – ولأول مرة في الجغرافية العربية ، وجغرافية العصور الوسطى – بكثير من الدقة والبراعة في التحديد والوصف .

واستغرق وضع المؤلف كله بضعة أعوام ، وكمل – حسبما يحدثنا الإدريسي في مقدمته – في العشر الأولى من شهر يناير الموافق لشهر شوال سنة 548 هـ (1154م)، وذلك قبيل وفاة الملك النورماني بأشهر قلائل . وسمي المؤلف (بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وهو عنوان يقول لنا الإدريسى إنه من وحي الملك «رجار» وإشارته . ولما كان المؤلف كله قد وضع بإشارة الملك «رجار» ورعايته ، وأهدي في مقدمته إليه ، فقد سمي كذلك «كتاب رجار» أو الكتاب الرجاري ، تنويها من مؤلفه، بفضل هذا الأمير العالم المستنير .

ويرى الأستاذ / «محمد عبد الله عنان» أن كتاب (نزهة المشتاق) للإدريسى أعظم مؤلف جغرافي في العصور الوسطى . وعلى الرغم من أنه يجري في وصف البلدان على نظرية «الأقاليم السبعة» المتبعة في سائر البحوث الجغرافية السابقة ، فإنه يمتاز بنزعته العلمية . ويكفي أن تعلم أن الإدريسى يبدأ كتابه بالتحدث عن «كروية الأرض» ، ويمتاز من جهة أخرى بخرائطه العديدة التي بلغت سبعين خريطة لكل إقليم من الأقاليم السبعة ، عشر خرائط بعدد أقسامه . وأبدع أقسامه «نزهة المشتاق» هي الفصول التي تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الإسبانية ، والمغرب ، وبحر الإدرياتيك وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض ، وهى البلاد التي تجول فيها الإدريسى ودرسها عن كثب . ففي هذه الفصول يكشف الإدريسي عن رسوخ معلوماته ودقة

مشاهداته . هذا إلى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوروبا الشمالية مثل ألمانية وبلاد إسكندناوة . وفضلا عن ذلك ، فإن الإدريسى يبدي دقة واضحة في تعريب المصطلحات والأعلام الجغرافية الأوروبية ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية ، وربما الإيطالية ، التي كانت يومئذ لغة البلاط النورماني والقشتالية التي وقف عليها خلال تجواله في شبه الجزيرة الإسبانية .

وفي القسم المتعلق بشبه الجزيرة الإسبانية يقدم إلينا الإدريسى أغرب قصة استكشافية بحرية قام بها مسلمو الأندلس . هى قصة : «الإخوة المغرورون» ، وهم ثمانية إخوة أو أبناء عم ، من أهل مدينة الحامة الأندلسية . خرجوا من ثغر لشبونة (أو لشبونة) في مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر ، وساروا في بحر الظلمات أعنى : (المحيط الأطلنطى) في اتجاه الغرب عدة أيام ، ثم ساروا جنوبا نحو ثلاثة أسابيع أخرى ، في بحر كدر عالي الأمواج ، حتى لاحت لهم جزيرة رأوا بها رجالا عمالقة ونساء فائقات في الحسن ، فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياما حتى جرت الريح الشرقية ، فوضعهم في سفينتهم معصوبي الأعين ، وسارت بهم أياما حتى رست على مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبي . ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة أن أولئك المغامرين الأندلسيين ، قد اكتشفوا بعض جزر الكناري أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربي السنغال . وقد كانت قصة هذه المغامرة البحرية التى ينفرد الإدريسى بروايتها فيما بعد ، ضمن الحوافز التى شجعت البحارة البرتغاليين ، وفي مقدمتهم «الأمير هنري» الملاح الشهير ، على القيام برحلاتهم البحرية العظيمة في المحيط الأطلنطي ، منذ أوائل القرن الخامس عشر .

وقد كتب الإدريسى - غير موسوعته الجغرافية - كتابا آخر عنوانه : (روض الأنس ونزهة النفس) ، أو كتاب : (المسالك والممالك) ، كتبه للملك «وليم الأول» ولد الملك «رجار» الذي خلف أباه في الملك . بيد أنه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد في مكتبة باستانبول .

توفي الإدريسي سنة 560 هـ (1166م) في السادسة والستين من عمره . ولسنا نعرف أين توفي وأين دفن .ويغلب على الظن أنه استقر في البلاط النورماني في (بلرم) حتى توفي ودفن بالجزيرة .

وتشغل موسوعة الإدريسي الجغرافية (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) عدة مجلدات كبيرة . وتوجد منها نسخ مخطوطة عديدة في : باريس ، واكسفورد ، واستانبول ، والقاهرة . بيد أنه لم ينشر منها حتى اليوم بالعربية سوى مختصر طبع في روما منذ سنة 1592 م ، في مطبعة آل مديتشي ، والقسم المتعلق بوصف إفريقية والأندلس ، وقد نشر بعناية العلامة المستشرق «دوزي» منذ نحو قرن - ثم نشر القسم الخاص بالأندلس مرة أخرى بعناية المستشرق الإسباني » «سافدرا» ، ونشرت كذلك الأقسام المتعلقة بإيطالية وصقلية . وترجمت الأقسام المذكورة إلى الإسبانية والفرنسية والإيطالية ، وترجمت الموسوعة كلها إلى اللاتينية في أوائل القرن السابع عشر ، ولكن كانت ترجمة مليئة بالأخطاء ، بقيت مخطوطا لم ير النور .

ويهيب الأستاذ «محمد عبد الله عنان» بالعلماء أن يهتموا قائلا : «ونحن نرجو أن يكون الوقت قد حان لإخراجها كاملة بعد هذا الاحتجاب الطويل ، كما نرجو أن تتاح الفرصة لعلمائنا للمساهمة في هذا العمل العظيم مع زملائهم العلماء المستشرقين الذين سبقوا إلى الفضل في الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة » .

* * *

الأصفهاني

نحن الآن في رحاب علم من أعلام مجددي القرن السادس الهجري الأجلاء ؛ حيث تنسب إليه أول مدرسة سلفية لها مريدوها وتلاميذها هو : الشيخ الحافظ «صدر الدين أبو طاهر بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي الأصفهاني» الذي ولد وعاش صباه بأصفهان في إيران ، لينتقل في أرض الله حيث يستقر به المقام في الإسكندرية ليموت ويدفن بها سنة 575 هجرية .

وواضح من اسم الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهاني - وهو الاسم الذي عرف به - شهرته وجنسيته وموطنه الأصلي . فشهرته التي عرف بها في أي مكان يوجد فيه من العالم الإسلامي هو : «الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني» يدل دلالة ظاهرة ، وأخرى لغوية على جنسيته وموطنه الأصلي . فأما الدلالة الظاهرة فهي في : كلمة الأصفهاني ، وأما الدلالة اللغوية فهي في كلمة : السلفي ، ومعناها بالفارسية أنه صاحب ثلاث شفاه ؛ لأن شفته العليا كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين ، وأما جنسيته وموطنه فواضحان من كلمة الأصفهاني ، حيث موطنه ومسقط رأسه بأصفهان ، وجنسيته إيرانية أو فارسية بنظام العالم القديم .

وطبيعي .. أن يتلقى الشيخ الصالح علومه الأولى في مدينة أصفهان حيث ولد فيها عام 475 هجرية ، واتجه منذ نعومة أظفاره إلى العلوم الدينية ، وخاصة علم الحديث ، قراءة وحفظا ، تأملا وتفسيرا .. على فقهاء زمانه ، وفي مقدمتهم : «ابن الفضل الثقفي» ، و«ابن عبد الوهاب المديني» ، و«ابن علي الحنفي» .. وكما

يذكر السبكي في (طبقات الشافعية) أن هذا الشيخ الصالح قد طلب الحديث وهو لم يزل شابا يافعا . فكتب الأجزاء الخاصة بروايات هذا الحديث ، وردها إلى أصولها؛ لمعرفة الأصيل من الدخيل عام 490 هجرية ، أي لم يكن قد تجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ، واستمر على هذا النحو أربع سنوات كاملة .. بعدها بدأ في قول الحديث وترديده وتفسيره ، ونبغ في ذلك نبوغا ملحوظا ، الأمر الذي جعل الناس يتجمعون حوله للاستفادة من علمه شيئا فشيئا .. وما هي إلا بضع سنوات حتى أصبح موضع ثقتهم وملتقى تساؤلاتهم فيما أسبغ الله عليه من علمه وفضله ، فاتخذ له مجلسا علميا في واحد من مساجد أصفهان .

ومن ناحية أخرى .. نجد هذا الشيخ الصالح لا يكتفي بما حقق من علم وفضل داخل حدود بلده أصفهان أو إيران كلها .. فلم تعد هذه أو تلك بعلمائها وفقهائها تشبع نهم هذا العالم المتفتح الذهن ؛ الأمر الذي جعله يرنو ببصره إلى خارج الحدود ، حيث حواضر الإسلام ، وأول ما التمع في ذهنه : بغداد ، وقد كانت بعد المدينة المنورة من الحواضر الإسلامية التي تتجه إليها أنظار الباحثين والعلماء .. فيحل إليها .. إلى بغداد .. التي كانت وقتئذ تموج بالأحداث الفكرية والعقلية ، وتزخر بالتطورات السياسية والاجتماعية .. وتمتلئ بالفقهاء والعلماء ؛ حيث كانت الأمة الإسلامية في مجدها وعظمتها التي لم تغرب بعد .

وفي ذلك يقول هو نفسه، أي : الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني : «دخلتها – أي : بغداد – ولم يكن لي همة ساعة دخولها إلا المضي إلى الشيخ «نصر ابن البطر» – وكان من علماء زمانه ببغداد – فدخلت عليه وقلت له : « وصلت يا سيدي من أصفهان إليك ، طالبا علمك وفضلك ، فرحب بي . ثم قرأت عليه سبعة عشر حديثا ، وخمسة وعشرين جزءا من القرآن الكريم ، وخرجت من عنده باكيا .. إلى أن أصبحت من أقرب تلاميذه إليه .. » .

وأما معنى خروجه باكيا من عند هذا الشيخ الجليل في بغداد ، فقد فسره بعض المؤرخين إلى أنه اكتشف قصور علمه بالنسبة إلى هذا العالم ، وأن هناك جوانب كثيرة من العلم لا تزال خافية عليه ، وأنه ما حقق من العلم إلا قليلا ، ولا يقاس بعلم واسع عند غيره .

ولم يكن الشيخ ابن البطر هو أستاذ الشيخ صدر الدين الأصفهاني وحده في بغداد ، وإنما كان هناك علماء آخرون في الفقه واللغة والحديث والقرآن والتفسير . تردد وتتلمذ عليهم طوال أربعة أعوام كاملة . بعدها توجه إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج .. وهناك التقى بعلماء الفقه والحديث ، وفي مقدمتهم : «ابن جرير الطبري» بمكة ، و«الإمام القزويني» بالمدينة ، وهما من المجددين ، وتلقى عنهما العلم ، واستفاد منهما إفادة أضافت الكثير إلى معارفه في هذين الميدانين من العلوم .

وعاد إلى بغداد ليستوفي أبحاثه ودراساته ، وليؤلف معجما لعلمائه وأساتذته ، وفي هذه الفترة بالذات وصفه «ابن نصر» قائلا : «كان الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني ببغداد ، كأنه شعلة نار في تحصيل الحديث» . ليعود إلى المشرق مرة ثانية ، بادئا بزيارة مدينة همذان في إيران ، فيلتقي بحجة الإسلام «أبي حامد الغزالي» ، وليقول عنه : «حضرت مجلس الغزالي بهمذان ، وكنا في رباط واحد ، وبيننا ألفة وتودد ، وكان أذكى خلق الله وأقدرهم على الكلام والمناقشة ، وأفضلهم في الفقه والحديث » . وكان يقصد بالطبع العلماء الذين التقى بهم مع الغزالي .

وترك الشيخ الحافظ السلفي الأصفهاني المشرق للمرة الثانية ، متوجها إلى دمشق ، وأقام بها عامين . وكما يقول السبكي : «واتصف بعلم جم ، سمع منه الكثيرون واستفادوا» ومن دمشق ، ذهب إلى مدينة «صور» حيث ركب سفينة حملته إلى الإسكندرية . وكان وقتئذ في السادسة والثلاثين من عمره .

وفي الإسكندرية كان كما وصفه الدكتور «جمال الدين الشيال» بكتابه (أعلام الإسكندرية) نقلا عن ابن المسعاني : «ثقة ، ورعا ، متقنا ، ثبتا ، حافظا ، فهما ، له حظ كبير من اللغة العربية ، كثير الحديث والعلم ، حسن الفهم والبصيرة » .

وفي هذه المدينة تزوج واستوطن ، واغتنى وتصدق ، وصارت له وجاهة علمية واجتماعية ، وفيها اشتغل بالتدريس ، فكان يعقد حلقاته في مساجدها ، ولم يلبث أن أقبل عليه الطلبة من كل فج عميق ، حتى أنشئت لعلمه ودرسه مدرسة عرفت فيما بعد- في التاريخ الإسلامي- (بالمدرسة السلفية). نسبة إلى صاحبها: مؤسسها ومنشئها الحافظ السلفي وهي : ثاني مدرسة بعد (المدرسة النظامية الأولى) التي أنشأها «أبو طاهر بن عوف» بالإسكندرية، تنسب إلى عالم لعلمه بالإسكندرية ومصر عامة.

وبقي الشيخ الحافظ السلفي بالإسكندرية معتكفا في مدرسته مدة مقامه بها أربعة وستين عاما ، لم يغادرها قط طوال هذه السنين سوى مرة واحدة ، حيث ذهب إلى مدينة الفسطاط ، ليتصل بمن فيها من العلماء ؛ ليأخذ عنهم العلم ، يعطيهم – كما يذكر – مما وهبه الله من علم وفضل .

والجدير بالذكر .. أن الشيخ الحافظ السلفي الأصفهاني كان من العلماء القليلين الذين قدروا المرأة العالمة الورعة التقية حق قدرها . فأشار إلى من يعرفهن من راويات الحديث كالسيدة عائشة رضي الله عنها ، والسيدة نفيسة ، والسيدة فاطمة النبوية ، والسيدة عاتكة بنت زيد ... وغيرهن ممن برزن في الحضارة الإسلامية ، فذكرهن في كتابه : (معجم السفر) كما ذكر النساء المشتغلات بالأدب كالشاعرات .

وكانت للشيخ حافظ السلفي في المجتمع السكندري مكانة ملحوظة ، فكان يسعى إليه الملوك والولاة والأمراء وكبار رجال الدولة ، وكانت له عند العامة كرامات وبركات حتى قيل : إنه إذا اشتد المرض بواحد منهم هرع إليه ، فكان يكتب

له ورقة تحوي آيات من القرآن ، فيشفى المريض بإذن الله ، وقد كشف القوم عن هذه الورقة وما تحويها ، فوجدوا أن ما كتب فيها إلى جانب الآيات القرآنية دعاء لطيف فيه استعانة بالله عز وجل ، يقول فيه : «اللهم ، إنهم ظنوا بي خيرا ، فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم بي .. أنت القادر على كل شيء ، سبحانك ..! » .

وبقي الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني بالإسكندرية حتى ناهز المائة من العمر ، ودفن بها ، وله فيها ضريح ، يزار حتى اليوم .

* * *

يوسف بن عبد المؤمن

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، أحد ملوك الأندلس العربية ، من مجددي القرن السادس الهجري ؛ حيث كانت وفاته عام 580 هـ ، ولعله كان من أجدد الناس في هذا القرن بصفة التجديد ليس لكونه ملكا ، ولكن لغير ذلك من الأسباب: فكرية وثقافية ؛ فإليه يرجع الفضل في إحياء التفكير الفلسفي بعد أن حكم على هذا التفكير في القرون الماضية بالرفض ، ووصف كل الذين يتعاملون بالفلسفة بأنهم ملاحدة ، أو خارجون على الشريعة الإسلامية . يضاف إلى هذا الفضل كونه ساهم – إلى حد كبير – في الحفاظ على الفلسفة اليونانية – كما سنرى – ولو أن هذا المجدد لم يفعل أي شيء في حياته إلا هذا العمل وهو : إحياء التفكير الفلسفي بعد طوال مرات ، وإنقاذ الفلسفة اليونانية والحفاظ عليها من الضياع .. لكان هذا يكفي ، لكي يلقب بالمجدد . وذلك .. لاهتمامه بصورة لافتة بالفلسفة ، واحتضانه لرجالها ، وفي مقدمتهم : «ابن رشد» ، ومن قبله «ابن طفيل» . والأهم : إدراكه بأن الثقافة العربية ينقصها التزود بالفكر اليوناني الأصيل ، وكأنه بذلك يعمل بقول النبي – ﷺ – : «**اطلبوا العلم ولو في الصين**» ولهذا ولغيره من أسباب استحق هذا الرجل اللقب الذي خلعه عليه علماء عصره ، بعد أن تولى الملك وهو : «الملك المفكر » أو : «الملك الفيلسوف» .

والحق .. أن اهتمامه بالفلسفة والعلم يرجع فيه إلى والده الذي غرس في نفسه – منذ الصغر – محبتها ؛ حيث عني بتثقيفه عناية عظيمة ، فلم يركن إلى تعليمه وتدريبه على الفروسية فحسب ، وإنما عني كذلك بتثقيفه حتى قال عنه مؤرخوه :

أنه نشأ على ظهور الخيل ، وفي الوقت نفسه تعود بل أدمن تعاطي الثقافة والفلسفة ، حتى صار واحدا من بين علماء عصره ومفكريه .. إلا أن ميله كان لافتا إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله لبقية الأنواع الثقافية أو المجالات العلمية . وقد وصفه البعض بأنه : كان جماعا مناعا ، ضابطا لأمور مملكته ، عارفا بسياسة رعيته ، ووصفه البعض الآخر بأنه : كان عف اللسان ، حلو الكلام ، طيب المجالسة ، أعرف الناس بما تكلم به العرب ، وأحفظهم لأيامهم ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام .

وكان أبوه قد استخلف من بعده على الملك ، ابنه الأكبر محمد ، ولم يكن يمثل صفات أخيه الأصغر يوسف ، فاختلف الناس حول هذا الشقيق الأكبر اختلافا وصل إلى أن خلعوه ، وكانت مدة ولايته شهرا ونصف الشهر ، ليبايعوا الشقيق الأصغر يوسف ؛ حيث اتفقت عليه الكلمة . ولما آل إليه الأمر وملك بعض البلاد في الأندلس ، تجهز لغزو بعض المناطق في الأندلس . إلى آخر ما حقق من انتصارات في الأندلس .. ربما لا يعنينا في هذا المجال تسجيلها بقدر ما يعنينا اهتمامه بالعلم والفلسفة ؛ حيث عرف قدرهما في هذا القرن ، ولم يشغله أو يؤثر فيه تألب ملوك عصره وعلمائه عليها ، بل خرج على جمودهم وأعاد للفلسفة مكانتها في دولته ، وجدد ما بلي من معالمها ، ووصل في الاهتمام بتجديدها إلى ما لم يصل إليه أحد قبله؛ لأنه هو الذي أنار الطريق لابن رشد الحفيد ، ووجهه نحو الغاية التي رفعت من شأن فلسفته ، وكان «ابن طفيل» قد أوصل ابن رشد إلى يوسف بن عبد المؤمن قبل أن يتولى الملك ، فسأله عند اتصاله به سؤالا في ظاهره المكر قائلا : هل للسماء بداية أم أنها أزلية ؟ وهنا تهيب ابن رشد أن يجيب على هذا السؤال ؛ لأنه لم يكن يعرف أن هذا الملك على خلاف شديد مع أمراء عصره حول النظر إلى الفلسفة . ولما لاحظ هذا الملك خشية ابن رشد وتردده في الإجابة على سؤاله ، تولى هو الإجابة عن هذا السؤال حيث شرح فيه رأي أفلاطون وأرسطو في ذلك . وهنا اطمأن إليه ابن رشد ، وأدلى برأيه في ذلك مستطردا .

وحين قدم ابن طفيل ابن رشد لابن عبد المؤمن بعد توليه الـملك ، طلـب منـه أن يقوم بشرح جـديد لهذه الكتب ، فقام ابن رشد بشرحها وفق مـا طلـب يوســف ابن عبد المؤمن ، وكانت شروحه لها أقرب إلى فهمهـا مـن الكتـب القديمـة ، فأنـار بذلك طريق العلم لابن رشد ، ووضح له الغرض الذي قصده في الشروح الجديدة ، وبهذا كانت فلسفة ابن رشد أقرب إلى فلسفة أرسطو من غيرها . ولولا إرشـاد هـذا الملك المفكر لابن رشد لم يكن لفلسفته هذه الميزة العظيمة التي تميز بهـا دون غـيره ، وهو ما رآه عدد من المؤرخين والعلماء : عربا وأجانب ؛ حيـث يـرون أن ابـن رشـد مدين لهذا الملك .

ولعل هؤلاء العلماء والمفكرين ، ومنهم الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» اتفقـوا على أن هذا الملك المفكر كان أقرب من غيره إلى أن يكون مجـددا في هـذا القـرن مـع إشارتهم الدالة على أن الفلسفة وقتئذ كانت فيه ، ولم ينظر هؤلاء العلـماء والمفكـرون إلى هذه الناحية التى يستحق عليها هذا الملك المفكر صفة التجديد ، وإنـما نظـروا إلى جهاده من أجل إعلاء الكلمة العربية في الأندلس ، وتغاضوا عما كان لـه مـن فـضل من أجل إعلاء قيمة إعمال العقل ، بإحيائه للفلسفة ، وكأنـه بـذلك يعـلى مـن قيمـة إعمال العقل وقدرته على التفكير في الأندلس وما يجاوره من بـلاد المغـرب العـربي ، خاصة بعد أن انتهى أمر هذه الفلسفة في بلاد المشرق العربي ، وكان من نتيجة عمـل هذا الملك المفكر أن انتهى عهد الهجوم على الفلسفة ، وصار المتعـاملون فيهـا أجـدر بلقب التجديد .

بل هناك من العلماء الذي يرى بأنه لو أن هذا الملك المفكر تغاضى عن الجهـاد ، وعاش في هذا الملك الواسع لربحت فيه الفلسفة أكثر من ذلك ، وارتفعت أكثـر ممـا ارتفعت ، وسارت في طريق التقدم والنهوض ، وانتفع بها المسلمون قبل أن ينتفع بها غيرهم .

❋ ❋ ❋

ابن طفـيل

إذا كان هناك الـذين يمثلـون فلـسفة المـشرق الإسـلامى في عـصر ازدهـاره ، ويتقدمهم «أبو نصر الفارابي» ، و«الـشيخ الـرئيس ابـن سـينا» ، و«حجـة الإسـلام الإمام الغزالي» . فهناك أيضا الذين يمثلون فلسفة المغرب الإسلامى في أوج عظمتها وازدهارها ، ويتقدمهم «ابن باجة وابن رشد وابن طفيل» ممن أثروا تأثيرا مبـاشرا في الحضارة الأوروبية ، فضلا عن كونهم من بناة الحضارة الإسلامية .

والأخير أي : ابن طفيل هو «أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمـد بـن طفيـل» أحد مجددي القرن السادس الهجري ، حيث توفي عام 581هـ وولد ونـشأ في «وادي إش» ، وهي مدينة تتبع التقسيم السياسي لولاية غرناطة إحدى ولايات الأندلس.

وولاية غرناطة ، التى ينتمى إليها كثير من العلماء والأدباء ، والتـى اسـتطاعت أن تحتفظ بعروبتها وإسلامها حتى أيام الأندلس الأخيرة ، في أواخر القرن الخـامس عشر الميلادي . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق ، وربما ولد في الأعوام الأولى في القرن السادس الهجري . ودرس الحديث والفقه واللغة على «أبي محمد الرشـاطى» ، و«عبد الحق بن عطية» ، وغيرهما من أقطاب العصر ، ولكنه مال إلى «الحكمة وعلوم الأوائل» . ودرس الحكمة والطب بإشبيلية ، وكان في مقدمة أسـاتذته «ابـن باجـة» أعظم فلاسفة الأندلس يومئـذ ، وغـيره مـن أعـلام العـصر ، وبـرع منـذ شـبابه في الفلسفة والطب ، كما برع في الفقه والأدب .

ولعلنا نقرأ ما كتبه الأستاذ « محمد عبد الله عنان » عن ابن طفيل، ونستفيد منه . حيث بدأ ابن طفيل حياته العامة ، في الوقت الذي اضطرمت فيه الأنـدلس بـالثورة

على المرابطين ، وقامت في كل قاعدة أندلسية ، حكومة قومية جديدة ، على نمط الطوائف . وكانت بلدة «وادي إش» : قد حذت في ذلك حذو غيرها ، وقام بها «أحمد بن ملحان الطائى» في سنة 540 هـ ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ، فانتظم ابن طفيل بين كتابه ، وخدمه إلى حين . ولما سقطت حكومته بعد ذلك بأعوام قلائل ، وتغلب الموحدون على قواعد الأندلس ، انتقل ابن طفيل إلى خدمتهم ، وكتب لوالي غرناطة الموحدي فترة أخرى .

على أن القدر ، كان يدخر لابن طفيل مكانته الحقيقية على يد الأمير الموحدي «السيد أبي يعقوب يوسف» ابن الخليفة «عبد المؤمن بن على» . فقد عين هذا الأمير واليا لإشبيلية سنة 551 هـ (1156م) ، وكانت إشبيلية قد غدت يومئذ قاعدة الحكم الموحدي بالأندلس . بعد أن عفا الزمن على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وغدت في الوقت نفسه أعظم مراكز الحركة الفكرية والأدبية، وكان السيد أبو يعقوب ، عالما فيها ، أديبا يشغف بالدرس ، ويجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، حتى غدت إشبيلية – خلال الأعوام الثمانية التى قضاها في حكمها – جامعة الأندلس الحقيقية، وكان ابن طفيل في مقدمة هذا الرهط العلمي الذي ينتظم حول الأمير العالم .

ولما توفي الخليفة «عبد المؤمن بن على» في سنة 558هـ ، خلفه في الخلافة ولده السيد «أبو يعقوب يوسف» . ولسنا نعرف بالتحقيق ما إذا كان ابن طفيل قد شغل منصب الطبيب الخاص للخليفة الجديد ، منذ البداية . بيد أنه لما مرض الخليفة سنة 565هـ ، واستطال مرضه أربعة عشر شهرا ، كان الذي يتولى علاجه – وفقا لرواية ابن صاحب الصلاة– مؤرخ الموحدين وقتئذ، «طبيباه: « أبو مروان بن قاسم » ، و«أبو بكر بن طفيل». وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية الفيلسوف والطبيب الكبير باعتباره طبيب الخليفة الموحدي . على أنه يلوح لنا مما تؤكده لنا الرواية من توثق أواصر المحبة والصداقة بين الخليفة وطبيبه ، أن ابن طفيل كان يشغل منصبه قبل ذلك بأعوام . ومن جهة أخرى فإن ابن طفيل لم يكن فقط طبيب الخليفة ، وإنما كان في الوقت نفسه مستشاره وموضع ثقته .

وكان من أثر ذلك : ما عهد به الخليفة إليه من نظم قصيدة بليغة حماسية في دعوة طوائف العرب الذين يقطنون إفريقيا ، وحثهم على الاشتراك في الجهاد بالأندلس ، يشاد فيها برفيع أصولهم ، وأرومتهم ، وكونهم السيف الماضى في نصرة الدين ، فنظم ابن طفيل – تحقيقا لتلك الغاية – قصيدة طويلة في أربعين بيتا ، تفيض بلاغة وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف في الوقت نفسه من منزلة عالية في النظم تضعه في أكابر الشعراء . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكملها ، وقد جاء في مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنا ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم ... على الهون ركاب ظهور المصائب

ومنها في : استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية ... تحف بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

وهذه الناحية من نواحي عبقرية ابن طفيل ، أعني : شاعريته العالية ، وروعة نظمه ، لم تأخذ حقها من التعريف ؛ إذ كانت صفاته العلمية والفلسفية ، تطغى دائما على ما عداها من صفاته الأخرى . بيد أننا سوف نرى فيما بعد أن لابن طفيل غير هذا النظم السياسي الحماسي ، نظما رقيقا آخر .

وفي سنة 566هـ (1170م) عبر الخليفة «أبو يعقوب يوسف» في جيوش الموحدية إلى الأندلس طلبا للجهاد ، وكان في ركبه بالطبع طبيبه الخاص : ابن طفيل ، وقضى الخليفة في شبه الجزيرة خمسة أعوام . وكانت إشبيلية مقامه الأثير . وفي هذه الفترة التي قضاها الخليفة أبو يعقوب في المدينة الأندلسية العظيمة تفتحت مواهبه العلمية والأدبية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم أئمة التفكير الإسلامي ، هم: طبيبه الخاص: ابن طفيل ، وتلميذه القاضي الفيلسوف «أبو الوليد بن رشد» ، والطبيب العبقري : «عبد الملك بن زهر» . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ، ولا يصبر على فراقه .

وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه إلى أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نوه لديه بفضل الفيلسوف «ابن رشد» وبراعته .

وكان هذا الخليفة العالم أبو يعقوب ، يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ . وإذا صدقنا رواية المراكشي التي ينقلها إلينا عن القرطبي ، فإن الفضل يرجع إلى الخليفة في وضع شروح فلسفة أرسطو العربية . وذلك أنه وفقا لهذه الرواية هو الذي أوعز إلى طبيبه ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو ، وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض .

ولكن ابن طفيل ، نظرا لكثرة مشاغله وشيخوخته ، هو الذي اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة ، لما يعلمه من مقدرته ، وقوة نزوعه ، وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذي حمل ابن رشد على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهي الشروح التي اشتهر بها وترجمت فيها بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم في دوائر التفكير الغربي .

ولما توفي الخليفة «أبو يعقوب يوسف» في ربيع الآخر سنة 580 هـ (أغسطس سنة 1184م) . عقب نكبته في موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل في منصبه طبيبا

خاصا لولده الخليفة الجديد «أبي يوسف يعقوب المنصور» ، بيد أنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، إذ توفي بمراكش في أواخر سنة 581 هـ (1185م) وحضر الخليفة جنازته بنفسه .

ويرصد الأستاذ «محمد عبد الله عنان» الآثار الفكرية لهذا المفكر والعالم والشاعر، فيذكر أن من أشهر مؤلفات ابن طفيل: رسالة (حي بن يقظان) أو (أسرار الحكمة المشرقية) و(الأرجوزة الطبية المجهولة) و(رسالة النفس) ... وغيرها من مؤلفات ورسائل أخرى لم تصل إلينا . وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة (حي ابن يقظان) ، وهي تلخيص فلسفي رائع لأسرار الطبيعة والخليقة ، عرضت خلال حياة وأعمال طفل خلق «من بطن الأرض» في جزيرة مجهولة من جزائر الهند ، جنوبي خط الاستواء ، وهذا الطفل هو «حي» . وقد استطاع بالملاحظة والتأمل التدريجي لظروف الحياة ومظاهرها الطبيعية ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يقترب في تأمله من الله. وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية، حيث لا تزيد عن خمسين صفحة، فقد لفتت بروعتها أنظار رجال النقد الحديث، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى عدة لغات أوروبية أخرى ، وقد تأثرت بها بعض الروايات والقصص الأدبية في أوروبا في مقدمتها قصة (روبنسون كروزو) المعروفة .

وتشيد الرواية الإسلامية المعاصرة بعبقرية ابن طفيل ، ويصفه «المراكشي» ، بأنه «أحد حسنات الدهر» ، ثم يقول لنا : إنه «صرف عنايته في أواخر عمره إلى العلم الإلهي، ونبذ ما سواه . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية» . ويصفه «ابن الخطيب» بأنه «كان عالما محققا ، شغوفا بالحكمة المشرقية ، متصوفا ، طبيبا ، ماهرا في أصول العلاج ، وفقيها بارع الإعراب ، وكاتبا بليغا ، ناظما ناثرا ، مشاركا في عدة فنون».

هل نحن في حاجة إلى الحديث عن كتاب (حي بن يقظان) لابن طفيل، والذي يعتبر في قيمته العلمية والإبداعية من أمثلة تجديده في الفكر الإسلامي؟ ولعل أول وأوضح انطباع يستقر في ذهن من يطالع قصة «حي بن يقظان» كما عرضها ابن طفيل، أنها ملحمة تصور ما ينطوي عليه العقل البشري من إمكانات وطاقات. فبالعقل يستطيع الإنسان الوصول إلى المعرفة وإدراك وجود الخالق.

ويحدثنا «أحمد أمين»: أن (حي بن يقظان) رسالة بناها مؤلفها على نظرية له وهي: «أن في وسع الإنسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول إلى الله، بحيث يستطيع بعقله أن يصل إلى معرفة العالم ومعرفة الله. وعنده أن المعرفة تنقسم إلى قسمين: معرفة حسية ومعرفة نظرية. أو بعبارة أخرى: معرفة مبنية على الكشف والإلهام كالتي عند الصوفية، ومعرفة مبنية على المنطق كالتي عند العلماء. أما الأولى، فيمكن الوصول إليها برياضة النفس، فتنكشف لها الحقائق كأنها نور واضح لذيذ يومض إليه حينا ثم يخبو حينا. وكلما أمعن الإنسان في الرياضة تجلت له المعارف. وأما النوع الثاني من المعرفة فهو مؤسس على الحواس. والمعرفة بالحواس تتألف وتستنتج منها نتائج علمية هي أيضا نوع من المعرفة التي يسميها: المعرفة النظرية».

وفي رأي محرري (دائرة المعارف الإسلامية) أن هذه القصة عبارة عن عرض للأفلاطونية الجديدة في أشد صورها صوفية، «وقد عرض ابن طفيل في كثير من المهارة هذه الفلسفة على مراحل متدرجة، متخذا لذلك إنسانا قصصيا، موهوبا قادرا على التفكير، وجد منذ طفولته في جزيرة مقفرة. وهنا استطاع بقوة عقله فقط أن يميط اللثام عن الفلسفة، وأسس لنفسه مذهب الأفلاطونية الجديدة في صورته الإسلامية، وسمى ابن طفيل هذا الإنسان – وهو رمز للعقل – حي بن يقظان أي: ابن الله، وتظهر في نهاية هذه القصة شخصيتان هما. سلامان وأبسال، لهما دور رمزي في هذه القصة».

وفي حاشية بالمصدر الأخير المشار إليه ، يحدثنا «عباس محمود» - وهو غير عباس محمود العقاد- أن الغاية التى رمى إليها ابن طفيل من كتابه «هى شرح بعض المسائل الفلسفية في أسلوب قصصى ، كالكلام في الله ، وصدور الكون ، ونظرية المعرفة ، والفلسفة الطبيعية ... وغير ذلك من المسائل التى نهج فيها ابن طفيل نهج من تقدمه من فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا . وقد انتهى إلى تقرير التوفيق بين الفلسفة والدين ، وأن العقل والوحى سبيلان للمعرفة الصحيحة ، غير أن الفلسفة ينبغى أن يترك أمرها إلى الخاصة دون العامة من الناس ، وقد رمز إلى ذلك في قصته بعجز «الملك سلامان» عن فهم ما وصل إليه «حي بن يقظان» عن طريق العقل ، وإن كان قد أدركه عن طريق الدين .

ولكن ، لندع هذه الجوانب الفلسفية والروحية التى تكشف عنها القصة تارة وترمز إليها تارة أخرى، ونتتبع مراحل التطور الذي طرأ على حياة «حى بن يقظان» كما يراها الدكتور «راشد البراوي» منذ وجد - أي حى بن يقظان - على ظهر تلك الجزيرة المقفرة ، وذلك خلال ما مر به من تجارب ، وما اعترضه من صعاب ومشكلات، وما اهتدى إليه من حلول. وكلها تجارب ومشكلات انبثقت من غريزة البقاء : أي : من ضرورة إشباع حاجاته الأساسية ، والطبيعية أو المادية أساسا.

ففى أول أمره ، نما وتغذى بلبن الظبية إلى أن تم له حولان وتدرج على المشى ، ثم شاهدها فيما بعد ، تطعمه ما تساقط من ثمار حلوة نضجة ، ورأى نفسه على خلاف جميع الحيوانات في الجزيرة ، عاريا ، عديم السلاح ، ضعيف العدو ، وقليل البطش، عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها ، فوجد أن ثمة صراعا بينه وبينها ، فإما أن يدفع خطرها ، وإما أن يظل يعاني من تلك النواقص ، فيكون في هذا القضاء عليه .

وهكذا دفعته غريزة البقاء إلى التماس ما يستر به بدنه ويحفظه من تقلبات الطقس. وما يدفع به عادية الحيوان ، وانتهى إلى اتخاذ نوع من الكساء من أوراق الأشجار . وشهد نارا انقدحت في أجمة قلخ (قصب أجوف) ، وسرعان ما

استخدمها لنيل الدفء ، ثم في توافر الطعام ناضجا عندما ألقى فيها ببعض الحيوانات البحرية.

وسار خطوة أبعد ، فإذا به يتخذ مخزنا وبيتا لفضلة غذائه ، وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض لئلا يصل إليه شيء من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة في بعض شئونه . واستألف جوارح الطير ليستعين بها في الصيد ، واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها ، واتخذ من صياصي البقر الوحشية شبه الأسنة وركبها في القصب القوي وفي عصى الزان وغيرها ، واستعان في ذلك بالنار وبحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسه من جلود مضاعفة. كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعي . ثم دفعته الضرورة إلى أن يأتلف بعض الحيوانات الشديدة العدو ، ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذي يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الأصناف .

إذا ... بعد لبن الظبية ، عاش «حى بن يقظان» على الغذاء النباتي من الثمار الناضجة المتساقطة ، ومن الدرنات وما في حكمها أيضا بطبيعة الحال ، ثم اتخذ من لحوم الطير والحيوانات طعاما ، يأكله نيئا . وتعلم كيف يصنع نوعا بدائيا للغاية، من الكساء ، توافرت مادته الخام وهى من : أوراق الأشجار الكبيرة ، وريش الطيور الميتة . وعرف النار بطريق الصدفة، وسخرها في خدمة أغراضه البسيطة .وصنع أنواعا من السلاح للدفاع عن النفس وللصيد ؛ فكان ذلك خطوة بالغة الأهمية كفلت له السيطرة على الحيوان الذي يفوقه قوة وبطشا بفضل ما زودته به الطبيعة من قرون أو أنياب ومخالب . وتعلم صناعة البناء ، واستألف بعض الحيوانات . وأهم من هذا أنه عرف أبسط أشكال الادخار لما آثر الاحتفاظ ببعض ما فضل من غذائه ، وكان ذلك هو الذي دفعه إلى إقامة مكان للتخزين .

وهكذا .. استطاع أن يسخر الطبيعة لخدمته ، حين استخدم عقله في التفكير فيما يفيده .

❊ ❊ ❊

السهروردي

شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي، الملقب في التاريخ الإسلامى بالشيخ المقتول ، أو شيخ الاستشراق . يعتبره العلماء والمفكرون واحدا من مجددي القرن السادس الهجري ، لما قدمه في سنوات عمره القصير من إضافات فكرية كونت فيما بعد مدرسة استشراقية لها تعاليمها ومناهجها ، أتباعها ومريدوها . وكان هو عميدا لهذه المدرسة .

ولد السهروردي سنة 549 هـ (1153م) في قرية سهرورد على مقربة من المدينة الإيرانية الحديثة «زنجان»، التى أنجبت قسطا وافرا من الرجال العظماء في الإسلام . وتلقى تعليمه الباكر على يد «مجد الدين الجيلى» في مراغة ، المدينة التى كتب لها أن تشتهر بعد ذلك بضعة أعوام عندما أنشأ الفاتح المغولي «هولاكو» المرصد الشهير بالقرب منها ، وجمع كبار علماء الفلك في ذلك الوقت تحت إمرة «نصير الدين الطوسى» فيها. ثم انتقل السهروردي بعد ذلك إلى أصفهان، وهى مركز شهير للحركة العلمية في إيران آنذاك ؛ لاستكمال دراسته ؛ فأتم دراساته المقررة على يد «ظهير الدين القاري». ومن الطريف أن «فخر الدين الرازي» المعارض الكبير للفلسفة ، كان أحد رفاقه في المدرسة ؛ وعندما قدمت له نسخة من (التلويحات) بعد وفاة السهروردي بعدة سنين قبلها ، بكى ذاكرا رفيق الدراسة الذي اختار مسلكا يختلف كل الاختلاف عن مسلكه هو .

وما إن أتم السهروردي دراساته المقررة ، حتى شد الرحال داخل إيران . فقابل عددا من شيوخ الصوفيين ، وانجذب بشدة إلى بعضهم . والواقع أنه باشر المسلك الصوفي في هذا الوقت من حياته ، وقضى فترات طويلة من الخلوة ذاكرا متفكرا .

ثم اتسعت رحلاته شيئا فشيئا لتشمل الأناضول وسورية التى هام بمناظرها الطبيعية . وفي إحدى سفراته ذهب من دمشق إلى حلب ، حيث تقابل مع «الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي» الشهير. وكان الملك الظاهر يحب المتصوفين والعلماء ، فتعلق بالحكيم الشاب ، ودعاه إلى الإقامة في بلاطه بحلب .

قبل السهروردي الدعوة بسرور بالغ ؛ لما كان يكنه من حب خالص لتلك الأقاليم ، وأقام في البلاط ، ولكن صراحته وقلة احتياطه في إفشاء بعض العقائد «الباطنية» أمام المجالس على اختلاف أنواعها ، والذكاء الحاد الذي مكنه من قهر خصومه جميعا في الجدال ، ونبوغه في كل من الفلسفة البحثية والتصوف ، كل هذه العوامل تضافرت لتزيد في عدد أعدائه ، وخاصة في أوساط العلماء ؛ فطالبوا – آخر الأمر – بإعدامه بتهمة ترويج عقائد تتنافى مع الدين . فلما رفض الملك الظاهر ، التمسوا ذلك رأسا من صلاح الدين. وكانت سورية– إذ ذاك– قد استعيدت من الصليبيين، وكان تأييد العلماء أمرا ضروريا لدعم سلطان صلاح الدين ، فلم يكن له مفر من أن يذعن لإرادتهم . فضغط على الملك الظاهر حتى ينفذ رغبة هيئة السلطات الدينية الثائرة على الحكيم الشاب . وعليه أودع السهروردي السجن ، وفي سنة587 هـ (1191م) مات ، دون أن يعرف السبب المباشر لموته ، حيث يذكر بعض مؤرخيه أنه قتل في محبسه .

وهكذا .. لاقى شيخ الاستشراق في سن الثامنة والثلاثين نفس المصير الذي لاقاه سلفه العظيم «الحلاج» ، الذي كان قد انجذب إليه بشدة في شرخ شبابه ، والذي كثيرا ما يستشهد بأقواله في كتبه .

وعلى الرغم من هذا العمر القصير من حياة السهروردي ، فقد كتب نحو الخمسين كتابا في كل من العربية والفارسية ، وصلنا معظمها . وهذه الآثار مكتوبة بأسلوب رائع؛ كما أنها ذات قيمة أدبية رفيعة . فالآثار الفارسية تعتبر من روائع النثر

الفارسي ؛ فهي في الحقيقة نموذج للنثر الروائي والفلسفي الحديث. وتقع هذه الآثار في عدة أنماط متميزة بحيث يمكن قسمتها إلى خمسة أقسام :

1- الكتب الأربعة الكبيرة التعليمية والعقائدية، وجميعها بالعربية. وهي تشكل مجموعة رباعية تبحث أولا في الفلسفة المشائية كما فسرها وحورها السهروردي، ثم في الحكمة الإشراقية نفسها التي تأتي على أعقاب هذا الأساس العقائدي . وتتألف هذه المجموعة الرباعية من : «التلويحات» و«المقاومات»و«المطارحات»، التي تتناول ثلاثتها تعديل الفلسفة الأرسطية ، وأخيرا : درته النادرة : (حكمة الإشراق) التي تدور على العقائد الإشراقية.

2- رسائل قصيرة بالعربية والفارسية ؛ وهي تتناول المادة الواردة في المجموعة الرباعية بلغة أبسط وطريقة أسهل. وتشتمل هذه الرسالات على (هياكل النور)، (الألواح العمادية) ، «برتو نامه» أو (رسالة في الإشراق) ، و(في اعتقاد الحكماء) و(اللمحات) ، و (يزدان شناخت) أو (معرفة الله) ، (بستان القلوب).

وقد نسب الكتابان الأخيران : (معرفة الله) ، و(بستان القلوب) إلى عين القضاة «الهمذاني» و«السيد الشريف الجرجاني» على الرغم من أنه يبدو من المرجح جدا أنهما للسهروردي .

3- قصص أو روايات صوفية رمزية تصور رحلة النفس خلال الكون بحثا عن انعتاقها وإشراقها . وهذه الرسائل جميعها بالفارسية ، وإن كان لبعضها نظائر عربية. وهي تشتمل على: «عقل سرخ» أي: (العقل الأحمر)، «آواز بر جبرائيل» أي: (حفيف جناح جبريل)، «الغربة الغربية»، «لغت موران» أي: «لغة النمال»، رسالة في «حالة الطفولية» ، «روزي با جماعة صوفيان» ، أي: (يوم مع جماعة الصوفيين) ، «رسالة في المعراج» ، «صفير سيمرغ» ، أي : (صفير العنقاء) .

4- منقولات وترجمات وشروح على كتب الفلسفة القديمة والنصوص الدينية السماوية، مثل: ترجمة (رسالة الطير) لابن سينا إلى الفارسية وشرح على (الإشارات) لابن سينا وتأليف (رسالة في حقيقة العشق) ترتكز على رسالة ابن سينا «في العشق»، وتفاسير لعدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية.

5- أوراد وأدعية بالعربية على نمط تلك التي كانت تعرف بـ «كتب الساعات» في العصور الوسطى، ويطلق عليها السهروردي اسم: «الواردات والتقديسات».

إن هذا الإنتاج، مقرونا بالشروح المتعددة التي كتبت عليه في مدى القرون السبعة الماضية؛ هو ما يكون مصدر عقائد المدرسة الإشراقية. وإنها لثروة طائلة للحكمة، تحتوي على رموز كثيرة، مستمدة من شتى المذاهب.

ويبدو أن سعة اطلاع السهروردي، أوجدت عنده فكرة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين، فالفلاسفة عنده: رجال من أسرة واحدة وفروع من شجرة مباركة تمد الإنسانية بما فيها من ثمار وخيرات، لأنهم أبناء هذه الإنسانية، ورجال السلام والإصلاح. وعلى هذا فإن زهاد الهند، وفلاسفة الإغريق، وحكماء العرب يسعون جميعا وراء غاية واحدة، ويعملون على نشر نظرية ثابتة، وينضوون تحت لواء فلسفة واحدة، هي الفلسفة الإشراقية. ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول: أن الله نور الأنوار، ومصدر جميع الكائنات، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي. والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها. فالفلسفة الإشراقية تعتمد إذا.. على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر فلسفية أخرى.

فالسهروردي يرى أنه إذا كان العالم في جملته قد برز من إشراق الله وفيضه، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والإشراق. فإذا ما تجردنا عن الملذات الجسمية، تجلى علينا نور إلهي لا ينقطع مدده عنا. وهذا النور صادر عن

كائن ، منزلته منا كمنزلة الأب ، والسيد الأعظم للنوع الإنساني ، وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها . ويسمى : الروح المقدسة أو بلغة الفلاسفة : العقل الفعال . ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة ، واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم .

وليس للتصوف من غاية إلا هذا الارتباط ، والإشراقيون يسعون إليه ما استطاعوا إليه سبيلا ، وكثيرا ما ينعمون به . أما الأنبياء فهم في اتصال دائم وسعادة مستمرة . يقول السهروردي : «إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عالمها هذه القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وكثرة السهر تخلص أحيانا إلى عالم القدس، وتتصل بأبيها المقدس ، وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغيبات في نومها ويقظتها ، كمرآة تنقش بمقابلة ذي نقش ».

فالفلسفة الإشراقية التي دعا إليها السهروردي متأثرة في بدئها ونهايتها بتعاليم الفارابي ، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزاعة إلى العالم العلوي . غير أن هذه الفلسفة صوفية كلها ، أو التصوف هو كل شيء فيها ، في حين أنه ليس لدى الفارابي إلا بعضا من مذهب متنوع الأجزاء ، هذا إلى جانب أن الاستشراقي لا يقنع بالعقل وحده ، بل يطمع في الامتزاج بنور الله عز وجل ، وهو نور الأنوار ، النور الذي ليس بعده ولا قبله نور . فكأن السهروردي حين دعي إلى الاختيار بين تصوف الحلاج ، وتصوف الفارابي ، رأى أن يجمع بينهما ، ويقول بالاتصال والاتحاد معا .. تتفرع من فكرته عن وحدة الوجود .

* * *

الخيوشاني

أحد مجددي الإسلام في القرن السادس: «محمد بن موفق بن الحسن بن عبد الله» المعروف في التاريخ الإسلامي بالخيوشاني . نسبة إلى مسقط رأسه (مدينة خيوشان) بفارس ، والذي جاء إلى مصر من فارس، هذه البلاد التي اعتنق الإسلام فيها كثيرون، وكان منهم الأفذاذ من العلماء والمفكرين الذين تمتعوا بالعلم والإيمان كما تحاول هذه الموسوعة رصدهم ، وهذه واحدة من سمات الإسلام ، حيث لا يدخل في بلد من بلاد الله إلا ويثير نبوغ أبنائها ويحرك طاقتهم إلى العلم ، ويخرج خبيء عبقرية أهلها .

كان هذا الرجل الصالح .. إماما جليلا ، ورعا تقيا . لم تر العيون في زمانه أكثر منه علما وزهدا ، وإصرارا على الحق . هذه السمات جميعها هي التي جعلته يصمم على القضاء على المذهب الشيعي بمصر ، وبالتالي : إسقاط الخلافة الفاطمية لأسباب كثيرة ، أهمها : إحساسه – وهو المسلم السني – أن هذا المذهب الشيعي بدأ يحيد عن جادة الحق .

وأول ما يستوقفنا في سيرة هذا الإمام الورع تاريخ ميلاده ، حيث تتفق معظم المصادر التي ذكرت هذا التاريخ على أنه في سنة 516هـ في (قرية خيوشان) ، كان يتعلم الفقه على المذهب الشافعي على يدي «محمد بن يحيى» ، أكبر تلاميذ حجة الإسلام «أبي حامد الغزالي» ، ثم حضر مصر عام 560هـ . وتوفي ودفن فيها عام 587هـ .

لكن الغريب في سيرة هذا الإمام الصالح ، أنه نشأ في مجتمع تعتنق الأغلبية منه المذهب الشيعي في إيران ، في الوقت الذي يعتنق (هو) المذهب السني ، ويتعصب له

تعصبا ملك عليه أقطار نفسه . حتى إنه عزم وهو في التاسعة والأربعين من عمره . أن يحارب بكل ما أوتي من علم وحجة المذهب الشيعي الذي تفرضه الدولة الفاطمية. تلك التي كانت وقتئذ مهيمنة على الحواضر الإسلامية بما فيها بلاد إيران.

وفي ذلك .. يقول «المناوي» في كتابه : (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) على لسان هذا الإمام الجليل : الخيوشاني : «لابد أن أصعد إلى مصر وأزيل دولة الفاطميين» . وبالفعل ، صعدها قبل سقوط الدولة الفاطمية على يدي صلاح الدين الأيوبي بسنتين ، وأخذ – منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر – في محاربة الفاطميين ، وكان من قوة الحجة والبيان ، وعظم الشخصية وقوتها ، والتفاف الناس من حوله وتجمعهم .. أن أخذت حاشية الخليفة الفاطمي تهادنه وتسترضيه .

ويسجل المناوي هذه الواقعة التاريخية في كتابه (الكواكب الدرية) قائلا : «إنه لما جاء الإمام الخيوشاني ، وصرح بسب الفاطميين .. أرسلوا إليه مالا فرده إليهم ، وضرب لهم رسولهم على صدره ورأسه بقوة ، حتى صارت عمامته حلقا في رقبته ، وسب أميرهم سبا علنيا .. » .

وهذا يؤكد صدق ما وعد به قبل أن يغادر بلاده إيران ، متوجها إلى مصر من أنه سوف يعمل ما في وسعه على زعزعة أركان حكم الفاطميين الشيعة ، حيث كان قلبه مغلقا أمام كل تفاهم مع الشيعة ؛ مما زعزع مكانتهم في مصر .

وكما تذكر الدكتورة «سعاد ماهر» في كتابها (مساجد مصر) قائلة : « لقد وجد صلاح الدين الأيوبي بغيته في الإمام الخيوشاني عندما أراد تحويل الخطبة من خلفاء الفاطميين إلى خلفاء العباسيين أي : من المذهب الشيعي إلى المذهب السني ؛ حيث تهيب صلاح الدين من هذا الإجراء في بادئ الأمر ، حتى وقف الإمام الخيوشاني أمام المنبر بعصاه، وأمر الخطيب بذكر بني العباس، ففعل. وهكذا نرى أن الخيوشاني أصر على موقفه . وتكرر هذا الموقف حتى كان العامل الأول في القضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر ، وبالتالي .. في إسقاط الخلافة الفاطمية .. » .

صحيح .. أن دعوة الإمام الخيوشاني قد تحولت من الصبغة العقائدية - أي : مناهضة مذهب ديني لمذهب ديني آخر - إلى صبغة سياسية . وصحيح أيضا أن المستفيد في هذا الصراع هو النظام السياسي في المقام الأول ، المتمثل في حكم صلاح الدين الأيوبي ، غير أن ذلك كان في مصلحة مصر . بشهادة الكثيرين من المؤرخين ، وذلك لجنوح الشيعة من ناحية ، وعدم قبول كل المصريين لها من ناحية أخرى .

وطبيعي - والأمر كذلك - أن يحترم صلاح الدين الأيوبي هذا الإمام الجليل ويقدره ، وربما كان يخشاه ، حيث وقر في نفسه ، واستقر في اعتقاده أنه إذا غضب عليه هذا الإمام الصالح ودعا عليه ، فسوف يصاب بمكروه . ولعله نوع من الاعتقاد كان يساور هذا السلطان العظيم الذي دانت له الممالك والأمم ، قد يكون جانبا من شخصيته التي كانت تخشى الله وأولياءه من الصالحين ومنهم هذا الرجل الصالح .

ومما يذكر في هذا الصدد : أنه لما خرج صلاح الدين الأيوبي لقتال الفرنجة عند بلدة الرملة بالشام ، توجه إلى بيت الإمام الخيوشاني قاصدا وداعه ، كما تعود أن يفعل في كل أمر كان يستعد القيام به . وفي هذا اللقاء ، التمس الإمام الخيوشاني من صلاح الدين الأيوبي أن يبطل بعض المكوس التي كانت تحصل من الحجاج ، فرفض صلاح الدين هذا الالتماس ، فقال له الإمام الخيوشاني محتدا : « قم لا نصرك الله» ، ووكزه بعصاه بشدة ، فوقعت قلنسوة السلطان صلاح الدين عن رأسه . والغريب .. أن هذا السلطان العظيم لم يتخذ منه موقفا مشددا ، والأغرب : أن المسلمين هزموا في هذه المعركة ، كنوع من الفأل غير الطيب .

كان الإمام الخيوشاني لا يخشى في الله لومة لائم ، لقد علم أن « تقي الدين » ابن شقيق صلاح الدين يبيع «المزر» وهو شراب من الذرة مسكر ، شأنه شأن البيرة في أيامنا ، فكتب إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه أن ينهى ابن أخيه عن

بيع هذا الشراب. وهنا واجه السلطان صلاح الدين ابن أخيه قائلا: «يا بني، لا طاقة لنا بالشيخ الخيوشاني، اذهب إليه وترضاه» . وتنفيذا لرغبة العم ذهب ابن الشقيق إلى الإمام الخيوشاني . وعند بابه أرسل إليه من يعلن عن حضوره واعتذاره قائلا : «تقي الدين ابن شقيق السلطان صلاح الدين يسلم عليكم» فرد الإمام الخيوشاني : « بل قل : شقي الدين لا سلم الله عليه » فقال الرسول : « إنه يعتذر » فرد الخيوشاني قائلا : « إنه الكذب » وامتنع عن مقابلته . فما كان من تقي الدين إلا أن امتنع عن بيع هذا الشراب خوفا من غضب الخيوشاني .

كذلك يذكر المناوي : أن الخيوشاني عاش عمره لم يأكل لقمة واحدة من وقف الدولة . ولم يأخذ من مال الملوك درهما واحدا . وعندما توفي كفن في كسائه الذي جاء به من خيوشان ، موصيا أن يضم جثمانه إلى جثمان الإمام الشافعي تحت قبة واحدة بالقاهرة .

* * *

القنـائي

فترة اتسمت بالصراع الحاد في المغرب ، بين المرابطين الذين يحاولون - في بـأس شديد - استرجاع ماضيهم السليب ، والموحـدين الـذين يتفـانون في تثبيـت دعـائم ملكهم .. في هذه الفترة ولد «أسد بن أحمد بن حجون» الشهير بالسيد عبـد الـرحيم القنائي في سنة 521 هجرية، من أخريات أيام مؤسس دولة الموحدين «ابن تومرت»، والذي مات بمصر عام 592هـ ، فهو من مجددي القرن السادس الهجري .

وكانت (مدينة ترغاي) بإقليم (سبتة) بالمغرب هـي مـسقط رأس هـذا الرجـل الصالح . وفيها نشأ وترعرع ، وفي دور العلم بها حصل الكثير من المعارف الدينيـة . خاصة في مسجد ترغاي الكبير ، متتلمذا على أيدي كبـار علمائهـا . وفي مقـدمتهم : والده «أحمد بن حجون» . فقد كان عالمـا تقيـا ورعـا .. يتمتـع بمكانـة عظيمـة مـن الاحترام والتقدير . كما كان له في نفوس أهل إقليمه «ترغاي» كل محبة وولاء ، فهـو بينهم الإمام ، والواعظ ، والمعلم ، والمصلح الديني والاجتماعي الذي يلجأ إليه كـل صاحب مشكلة فقهية أو علمية أو اجتماعية .

وقد يلحظ القارئ أن اسم الوالد هو أحمد بن حجون يختلـف تمامـا عـن اسـم الابن الذي هو عبد الرحيم القنائي ، فما معنى هذا الاختلاف ؟

إن لذلك قصة .. تبدأ منذ أن رزق هذا الوالد الصالـح أحمد بن حجـون بغـلام سماه «أسد» ، على ما كان شائعا في القبائل بالمغرب ، واستمر هذا الاسـم دون تغيـير حتى كبر الغلام وشب ولم يتغير ، غير أن الابـن نفـسه رأى ضرورة تغيـير الاسـم ، لشعور داخلي بأن «أسدا» لا يستقيم مع ما يتسم به من تقوى ودعة ورحمـة ، ووجـد

أن أقرب الأسماء إلى صفاته هي اسم «عبد الرحيم» . وفي ذلك يقول عن نفسه : «كان اسمي الذي سميت به أسدا بلغة أهل قبيلتنا، فلما فتح الله لي، وعاينت وصف الرحمة، سميت نفسى عبد الرحيم طمعا فيما عاينت .. » . ثم أضيف إلى «عبد الرحيم» صفة « القنائى » نسبة إلى تواجده بمدينة قنا بصعيد مصر ، فاشتهر بين الناس بعبد الرحيم القنائي ، كما سيأتي فيما بعد . وعرف بهذا الاسم حتى وفاته .

ونعود إلى تأمل سيرة حياة هذا الرجل الصالح ، فنجده طفلا نشأ نشأة دينية خالصة ، تبدأ من البيت ، حيث تتفتح كرامته على والده متعبدا تقيا ، وتنتهي إلى المسجد وغيره من أماكن العبادة وتلقي علوم الدين ، حتى لم يكد يصل إلى العاشرة من عمره ، حتى كان قد حفظ القرآن ، وجوده تلاوة وفهما .

ويستمر على هذه الحالة ، حتى إذا بلغ الثامنة عشرة من عمره يتوفى والده ، فيترك هذا الحادث الجلل أثرا كبيرا في نفسه ؛ فلم يكن هذا الوالد مجرد أب له ، بل كان معلما له أيضا . حتى إن وفاته تركت بصماتها على صفحة حياته من الناحية النفسية ، والناحية الجسدية أيضا . وصار أمرا لاحظته والدته العربية الأصل ، فرأت أن ترسله إلى أشقائها بدمشق في الشام ، فربما يكون في الإقامة بين أخواله في المشرق العربي - إلى جانب تغير المكان - ما يشفيه نفسيا ، وما يعينه على النمو جسديا ، أو ربما يتحقق من هذه السفرة بعض الفوائد التي أولها تحصيل معارف جديدة تشغله عما يفكر فيه من رحيل الأب والمعلم .

وبالفعل .. رحل الابن عبد الرحيم إلى المشرق حيث دمشق ، وكما توقعت والدته لم تقتصر الفائدة على الشفاء فحسب ، بل تجاوزتها إلى تحصيل أكبر قدر من علم ، مما يوافق استعداده الطبيعي .

ففي دمشق .. استطاع الاتصال بكبار علماء وفقهاء المشرق العربي ، وأن يقترب من عالمهم .. ويظل على هذا الحال فترة من الزمن قد جاوزت العامين ، نهل فيهما

من علوم المشارقة ، كما تفقه في علوم المغاربة ، إلا أن شدة الحنين إلى مسقط رأسه «ترغاي» بالمغرب التي تناديه إلى العودة ، فعاد إليها ، وقد أصبح في العشرين من العمر . هذا إلى جانب أنه أضاف إلى معارفه وتجاربه معارف وتجارب جديدة اكتسبها من تواجده عامين في المشرق ، كما أكسبه نضجا وعلما جديدين .

لقد كان الامتزاج بين الثقافة المشرقية والأخرى المغربية أثرهما البالغ في نفس ذلك الشاب المتفتح الواعي ، لقد صقل هذا الامتزاج شخصيته بشكل ملحوظ ، حتى أصبح من العلماء الذين يمكن أن يرجع إليهم في القضايا الدينية .

ومما ذكره المؤرخون : أن هذا الرجل الصالح كان حين يدخل المسجد لا يدخله كطالب علم ، بل على أنه عالم يملأ المكان الذي أصبح شاغرا لرحيل والده ، حتى إن المسجد الكبير في «ترغاي» بالمغرب . كان يمتلئ حيث لم يعد فيه مكان لقادم . فالناس يأتون إليه من كل صوب وحدب ؛ ليروا ابن العشرين عاما عالما يجمع بين ثقافة المشرق وثقافة المغرب . أو بين ما حققه في طفولته وصباه . وبين ما اكتسبه في شبابه وسفره .

وهكذا .. قضى السيد عبد الرحيم القنائي خمس سنوات جديدة من عمره على هذا النحو إماما وفقيها في موطنه «ترغاي» بالمغرب ، إلى أن سمع عن تكتل لقوى العدوان الصليبي ، تتجه بأنظارها إلى المشرق العربي ؛ لتفتك به تحت راية الصليب . وهنا رأى وجوب تكتل القوى لحماية حواضر الإسلام . وفي هذه الأثناء توفيت والدته ، تلك التي كانت تجعله يتمسك بالبقاء في «ترغاي» .

وهنا عزم على الرحيل متوجها إلى المشرق مرة ثانية ، ولكن إلى الحجاز هذه المرة لتأدية فريضة الحج .. وبين الأماكن المقدسة يظل تسع سنوات متنقلا وحاجا في كل سنة . حتى إذا كان موسم الحج العاشر ، التقى بأحد الرجال الصالحين ، وهو الشيخ «مجد الدين القشيري» ، القادم من صعيد مصر ، ويتم بينهما حديث ودي - فقد كان

كل منهما قد سمع بأخبار الآخر - خلاصته : لم لا يفكر في السفر إلى مصر ؟! ودعاه لزيارة «قنا» لما لها من مقومات ، ربما لا تتوافر في أي مدينة مصرية أخرى ، لم لا يسافر لرفع راية الإسلام ، وتعليم المسلمين أصول دينهم خاصة وأن القشيري قد لمس في هذا الشاب الورع من علم وفضل ، وتقوى وورع .

ولم يتردد في السفر إلى قنا بصحبة «الشيخ القشيري» . وفي هذه المدينة الهادئة بدأ صفحة جديدة من حياته . فأمضى في بادئ الأمر عامين ، يتعبد ويختلي بنفسه ليعرف خباياها وجوهرها ، وفي الوقت نفسه كان يعمل ليضمن قوت يومه ؛ فهو يرى أن الدين الإسلامي دين علم وعمل ، ومن ترك واحدة منهما ضل الطريق .. وبدأ بعد ذلك في القيام بمهمة الوعظ والدعوة . وتقديم الدين الإسلامي على نحو ما عرف وما اكتسب ، سواء في المغرب أو المشرق . وأفاض في ذلك وفتح الله عليه ، فكانت له مؤلفات ، في مقدمتها (تفسير القرآن الكريم) و(الأصفياء) وغيرهما .

وامتدت شهرته إلى أبعد من المكان الذي اختاره للقيام بمهمته ؛ حتى وصلت إلى السلطان «العزيز بن صلاح الدين الأيوبي» ، فأصدر قرارا بتعيينه شيخا لمدينة قنا، ومن يومها أصبح يعرف بالقنائي . واستقر في هذه المدينة من صعيد مصر ، وتزوج ابنة الشيخ القشيري ، وأنجب أولادا كثيرين ، وأنشأ زاوية يتعبد فيها ، حتى كانت وفاته سنة 592 ، فدفن في المكان المقام عليه مسجده الآن بمدينة قنا .

والحق .. أن للسيد عبد الرحيم القنائى الكثير من الإضافات في مجالات عدة ، لعل أبرزها : التصوف ، والعلم ، والاجتماع ، والأخلاق . وقد سجل الأستاذ «محمد عبده الحجاجى» في كتابه (شخصيات صوفية في صعيد مصر) الكثير من هذه الإنجازات ، مستندا إلى عدد من كتب الطبقات والسير والمؤرخين الذين أفاضوا في الحديث عن السيد عبد الرحيم القنائي . وعددوا آراءه في التصوف والأخلاق والعلوم الإسلامية ، ومنهم «ابن نوح الأقصري» في كتابه (الوحيد في سلوك أهل

التوحيد) و«الأدفوي» في كتابه (الطالع السعيد) و«الإمام الشطنوفي» في كتابه (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار) . و«الإمام الشعراني» في كتابه (لـواقح الأنـوار في طبقـات السادة الأخيار) المعروف بالطبقات الكبرى ، و«الإمام المناوي» في كتابه (الكواكـب الدرية في طبقات السادة الصوفية) وغيرهم . وكلهـم يجمعـون فـيها كتبـوا عـلى أنـه القطب الصوفي الكبير ، والعالم الفقيه الذي بلغت شخصيته المثـل الأعـلى في صـعيد مصر في القرن السادس الهجري في جانبين من العلوم هما : «الحقيقة» و«الـشريعة» . رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

ابن رشد

في ظل ظروف هذا القرن (السادس الهجري) تلك التي أشرنا إليها ، ظهر ابن رشد ليكون أحد مجددي هذا القرن ، بل والمفكر العالمي الذي اختارته الأقدار ليدرس ويتدبر أصول الشريعة الإسلامية ، ويبحث ويستوعب نظريات الفلسفة . ثم يتأمل ذلك الخيط الرفيع بين معطيات العقل الإنساني وأصول النقل الإلهي . حتى ينتهي إلى بناء يوفق فيه بين هذا العقل وذاك النقل . فيقضي على الاعتقاد بأن الفلسفة رجس من عمل الشيطان .

ولاشك أن هذا العمل من ابن رشد كان مشكورا . ويكفي أن ندلل على ذلك من أن الفلسفة في العالم الإسلامي : شرقه وغربه كانت في محنة مصدرها موقف «الغزالي» حين هاجم الفلاسفة السابقين ، وضاعف من الاهتمام بالتصوف ، حتى خيل للناس أن الفلسفة تعارض الدين ، وتضخم هذا المعنى بعد أن استهدفت لهجمات علماء الكلام من أشاعرة ومعتزلة وتعمدهم الخلاف في نظرتهم للأشياء . فكل فريق يدعي لنفسه حق تأويل الدين ، ويدعوه هذا الحق إلى تكفير غيره .

وهنا .. برز دور «ابن رشد» وموقفه الذي تضمنه كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال) ليوفق بين القانون الإلهي المعروف بالشريعة . والتأمل العقلي والحكمة المعروفة بالفلسفة ، ويقرر وحدة المقصد والهدف والغاية للاثنين ؛ فكل منهما : «الشريعة» و«الفلسفة» رفيقة وأخت وشقيقة للأخرى ؛ ذلك لأن الحقيقة واحدة، وكل ما هنالك أننا نسعى إليها ونفسرها على أنحاء كثيرة. فالشرع يرد بالحق. والنظر العقلي يؤدي إلى الحق. وعلى ذلك.. فالاثنان متفقان في الهدف .

جوهر نظرية ابن رشد هو : التوفيق بين الدين والفلسفة ، أي : لا يوجد تعارض بينهما . فالفلسفة تفحص ما جاء به الشرع وتتأمله . فإن أدركته استوى الأمر، وإن لم تدركه أعلنت قصور العقل الإنساني في أمر يدركه الشرع وحده . ولهذا.. فالشرائع ضرورية للعقول التي تفكر ، والفلاسفة لديهم القدرة على عرض ما في الشرائع من معان .

وكما يدلل ابن رشد على صدق نظريته، فيرى أن الشرع يحثنا على النظر العقلي في الموجودات ، وهو ما يستفاد من الآيات الكريمة : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[1] . ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾[2] .

كذلك يقول ابن رشد : ينبغي أن نعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق ، والعمل الحق ، والعلم الحق هو معرفة الله تعالى من بعده سائر الموجودات على ما هى عليه . والعمل الحق هو امتثال الأفعال التى تفيد السعادة وتجنب الأفعال التى تجلب الشقاء . وينبه ابن رشد أننا مدعوون أيضا إلى البحث عما انتهت إليه الأمم السابقة . في باب النظر في الموجودات . فإذا ما ألفيناه متفقا مع ما تقتضيه شرائط البرهان الصحيح قبلناه وسررنا به وشكرناهم . وإذا ألفيناه غير ذلك نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

إلى جانب هذه النظرة التجديدية . فإن ابن رشد استطاع بوهج فكره أن يعاون الشعوب والأمم المجاورة لدار السلام في النهوض بفكرها . وتلك واحدة من رسالات التجديد الكبرى في الإسلام .

بعد ذلك .. لعلنا نتعرف على سيرة وملامح تفكير هذا الفيلسوف العالمى ؛ ليتضح لنا دوره العظيم في الفلسفة والدين، وكيف أمكنه التوفيق بينهما على ما رأينا، وأسباب اختياره مجددا في الإسلام .

---

(١) الحشر : 2 .
(٢) الأعراف : 185 .

في ظل هذه الظروف الفكرية مصحوبة بالظروف السياسية السيئة .. نشأ ابن رشد في أسرة تضم العلماء والقضاة والمفكرين . ودرس على أعلام عصره ، وبرع في الفقه والفلسفة والطب . حتى إذا بلغ الثلاثين من العمر ، كانت دولة المرابطين قد أذنت بزوال وظائفها ، وخلفتها دولة الموحدين الدينية . فنزح إلى إشبيلية وهناك قدمه ابن طفيل إلى الخليفة الموحدي «أبو يعقوب يوسف » ، وكان يعمل طبيبا خاصا له . ولم يمض وقت طويل حتى أشار عليه ابن طفيل بأن يشرح ويقدم فلسفة أرسطو ؛ لأن الخليفة كثيرا ما شكا من غموضها، وتروق الفكرة لابن رشد فينفذها، ويقدم ثلاثة أنواع من الشروح هي : الأصغر والأوسط والأكبر للكتاب الواحد من كتب أرسطو . ويلمع نجمه ، وتزيد حظوته عند الخليفة الذي كان عالما حافظا فيقربه منه ، حتى إذا مات ابن طفيل يجعله طبيبه الخاص . حتى يتوفى هذا الخليفة ويتولى الخلافة ابنه المنصور .. وكان كأبيه عالما حافظا يعشق الاستماع إلى آراء ابن رشد ، ولا سيما التي حول علاقة الدين بالفلسفة .

ولكن هذه الفترة التي كانت فيها شهرة ابن رشد ؛ أعقبتها فترة أخرى كانت فيها نكبته ؛ حيث دس البعض من ذوي النفوس الضعيفة بينه وبين الخليفة ، فبثوا حول آرائه دعاية مسمومة مؤداها : الخروج على أحكام الشريعة الإسلامية ورموه بالمروق والإلحاد ... مع أنه هو القائل : «إن مبادئ الشريعة الإسلامية تفوق العقول الإنسانية، فلابد أن يعترف بها من جهل أسبابها» ، وعلى الرغم من هذا انتهى الأمر بإدانته ومعاقبته بالنفي مع عدد من تلاميذه ومريديه ، ثم تبرئته قبل وفاته بسنوات قليلة .

ولعل تجديد ابن رشد فيما يتضمنه كتابه: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) من أساسيات هذا التجديد ، فالكتاب من عنوانه يوفق بين القانون الإلهي «الشريعة» والتأمل العقلي «الفلسفة » ، ويقرر وحدة المقصد والهدف والغاية للاثنين .. فكل منهما : الشريعة والفلسفة رفيقة وأخت وشقيقة للأخرى. ذلك لأن الحقيقة واحدة .. كل ما هنالك أننا نسعى إليها ونفسرها على أنحاء

مختلفة.. فالشرع يرد بالحق.. والنظر العقلي يؤدي إلى الحق ، وعلى ذلك يكون ما يأتي به النظر العقلي موافقا لما ورد به الشرع .

جوهر النظرية - إذا - هو أنه لا يوجد تعارض بين الدين والفلسفة بل يجب ألا يوجد ؛ فالفلسفة تفحص كل ما جاء في الشرع ، فإن أدركته استوى الأمر ، وإن لم تدركه أعلنت قصور العقل الإنساني عن أمر يدركه الشرع وحده . ولهذا .. فالشرائع ضرورية للفلاسفة .. وللفلاسفة وحدهم القدرة على عرض ما في الشرائع من معان باطنة .

وبالطبع .. تقابل نظرية ابن رشد (1126-1198) بالرفض ؛ فالعقول وقد أغلقت على مفاهيم معينة ..استبعدت احتمال أي اتفاق بين الدين والفلسفة ، لكن على الرغم من هذا سرت هذه النظرية في الفكر العالمي كالنار في الهشيم ، ووجدت من يقف أمامها تلميذا صاغرا في الغرب والشرق ، فيظهر أثرها في الفلسفة اليهودية والأخرى المسيحية كما تذهب مؤلفات الأساتذة : «أرنست رينان» و «آسين بلاسيوس» و«جوتييه» و «دي بور» و «كارادي فو» و « خثالث بالنيثا» و «الأب قنواتي» و«جميل صليبا» و« فرح أنطون» و«يوحنا قمير» و«حنا الفاخوري» و«خليل الجر» و«عبد الرحمن بدوي» و«محمود قاسم» و«محمد يوسف موسى» و«محمد عاطف العراقي» و«محمد عمارة» .

ففي الفلسفة اليهودية نجد مؤسسها : «موسى بن ميمون» (1204- 1135) الذي يلقب بموسى الثاني أو رئيس الملة اليهودية أو بالعبرية «موشا هرمانة » ، أي موسى زمانه يتأثر في تأسيسه للفلسفة اليهودية بآراء أستاذه ابن رشد حتى إن أهم كتبه (دلالة الحائرين) الذي يتضمن التوفيق بين العقيدة الموسوية والفلسفة .. يقلد ابن رشد .. ولم ينته تأثير ابن رشد عند أبي الفلسفة اليهودية ، وإنما امتد إلى تلاميذه وأتباعه من الملة اليهودية ؛ مما جعل بعض الكتابات الأجنبية تبالغ حيث تقول : إن

اليهود هم الورثة الحقيقيون لفكر ابن رشد ، وقد أثارت هذه السيطرة الرشدية غضب رجال الدين اليهودي . وبسببها حكمت محاكم مونبلييه على مؤلفات ابن رشد بالحرق وحرمت تدريس الفلسفة اليهودية – في مناطق أخرى – لمن يقل عمره عن العشرين عام 1305 بسبب الرشدية أيضا . وعلى الرغم من هذا لم ينته أثر ابن رشد في الفلسفة اليهودية ، خاصة وأن «ابن ميمون» أقام مدرسته بالإسكندرية – بعد فراره من مسقط رأسه قرطبة – علم فيها اليهود فلسفته القائمة على التوفيق بين العقيدة والفلسفة ، وهذه المدرسة هي النواة الحقيقية للجامعة العبرية ، والتي أصبحت مركزا للبحوث والعلوم اليهودية .

وفي الفلسفة المسيحية.. نجد أكبر فلاسفتها «القديس توما الأكويني» (1225-1274) يتبع نظرية ابن رشد في التوفيق بين الفلسفة والدين ، فيحل بعض المشكلات التي كانت قائمة بين الفلسفة واللاهوت . ولعل توفيقه بين الدين والفلسفة هو الذي أسبغ عليه الكثير من النعوت التي أقلها أنه : أكبر الفلاسفة في العصر الوسيط . وقد سلك هذا الفيلسوف العظيم رشدية معتدلة . فاتبع منهاج ابن رشد سرا ، وهاجمه علنا، مسايرة للسلطات الدينية في ذلك الوقت . ولم ينكشف أمر تأثره بابن رشد إلا بعد وفاته ، فقد اعتبر مبتكرا : وفي ذلك يحثنا «رينان» في كتابه (ابن رشد والرشدية) ص 368 حديثا يتفق مع ما جاء في كتاب : (المذهب الرشدي عند القديس توما الإكويني) «لآسين بلاسيوس»، فيؤكد أن القديس «توما الأكويني» كان من أشد خصوم ابن رشد في الظاهر، ولكن يمكن اعتباره تلميذا له في المنهج وفي طريقة التأليف ، ويدلل «بلاسيوس» على التشابه بين الفيلسوفين الكبيرين ، ويذكر أن هذا التأثير قد تم بطريقين : **أحدهما** غير مباشر ؛ حيث اعترف القديس توما الأكويني بأنه أخذ نظرية التوفيق عن «ابن ميمون» ، **والأخير** – كما نعرف – تلميذ لابن رشد ، والآخر مباشر حيث اطلع على هذه النظرية بعد أن ترجمها عن العربية زميله في طائفة الدومينيكان القديس «ريموند مارتان» . وعلى أي

حال لن ينسى تاريخ الفكر فضل وشجاعة القديس توما الأكويني حين قام بهذا العمل الجليل .

ومن عباءة ابن رشد .. خرج عدد كبير من الفلاسفة الأوروبيين متأثرين بالرشدية اللاتينية Latin-Avirroism نسبة إلى صاحبها ابن رشد الذي تعرفه أوروبا باسم Avirrois فيروس .

وانتشار آراء ابن رشد في الفكر العالمي - إبان العصور الوسطى - أثار مخاوف السلطات في باريس ، فاتخذت إجراءات مشددة لتحريم تعليمها في الجامعة دون تنقيح ، واستفحل الأمر لدرجة أن أسقف باريس «اتنيين تامبييه» أصدر بيانا في 1270/12/10 ضمنه ثلاث عشرة رشدية تستوجب الحظر والمنع ، ولم يقتصر الأمر على باريس ، بل وصل إلى إيطاليا وغيرها ، حيث تسربت أفكار ابن رشد إلى الأوساط العلمية ، وتجاوزتها إلى فئات الشعب تخاطب فيهم ملكة العقل وتدعوهم إلى إعادة النظر بأن الفلسفة ليست رجسا من عمل الشيطان ، وإنما هي علم يتفق مع الدين ، مما أثار محاكم التفتيش في أوروبا .

لكن هذه المواقف المناهضة للفلسفة الرشدية إبان العصور الوسطى، لم تستمر طويلا ، فلم يأت القرن الرابع عشر حتى صارت الرشدية المرجع والمصدر لكل باحث ودارس ، وحتى قيل : إنه لما أراد «لويس الحادي عشر» ملك فرنسا إصلاح التعليم بفرنسا عام 1473 طلب من الأساتذة اتباع تعاليم ابن رشد .

ولعل تجديد ابن رشد في الإسلام يتضح في واحد من مؤلفاته الكثيرة ، وهو كتاب : (فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) . نقرأ بعض ما كتبه في العرض القيم الذي كتبه «الدكتور عبد الرحمن بدوي» أو غيره من المفكرين. من جملة ما جاء فيه أن أبا الوليد محمد بن رشد ، أكبر المفكرين العرب أثرا في الحضارة الأوروبية بفضل شروحه العظيمة على «أرسطوطاليس» . وقد قصد فيه

إلى بيان الصلة بين الفلسفة والشريعة . وكان الدافع إليه ما كان يثار في ذلك العصر من مساجلات في الشرق أو في الغرب حول تحديد هذه الصلة ، مساجلات اتخذت في بعض الأحيان صورا عنيفة ، خصوصا في الأندلس ؛ حيث كانت الأحوال السياسية تدفع بعض الحاسدين إلى الانتقام من خصومهم بإثارة العامة ضدهم واكتساب تأييد السلطان وهو الحريص على ترضية العامة في مثل هذه المواقف .

وكانت مؤلفات الغزالي قد بدأت تحدث أثرها في المشرق والمغرب على السواء ، والغزالي قد وقف موقفا غريبا : فقد عني بالفلسفة ، ولكنه هاجم الفلاسفة هجوما عنيفا في كتاب (تهافت الفلاسفة) ، وعني بالشريعة والتصوف حتى بدا في عيون الناس أنه حجة في الدين ، فتولد عن هذا كله تيار انتشر ببطء ، ولكنه فعال ما لبث كلما انتشر أن بولغ فيه أو بالأحرى في الجانب السلبي منه ؛ حتى كاد يخيل لعامة الناس أن الفلسفة تعارض الدين ، وهذا الرأي في بيئة ملتهبة الإحساس الديني بتأثير النزاع المسلح المستمر بين المسلمين والنصارى في الأندلس ، كان من شأنه أن يحدث هزة شديدة ، فاستغله الفقهاء من خصوم الفلاسفة . وكان طبيعيا إذا : أن ينبري الفلاسفة للدفاع عن أنفسهم وبيان أنه ليس ثم تعارض بين العقل والإيمان ، بين الفلسفة والدين . فجاء «ابن طفيل» في قصة (حي بن يقظان) ليثبت الاتفاق بين الفلسفة وبين الدين ، ولكنه لجأ إلى الرمز ، ولم يفصل القول في حل المشكلة . لهذا جاء ابن رشد فعالجها في ثلاث رسائل هي أولا : (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ثم في كتاب : (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) ثم: (ضميمة) لما تناوله في الرسالة الأولى تتعلق بالعلم القديم ، أي علم الله منذ الأزل بما سيقع من حوادث .

بدأ ابن رشد فعرف الفلسفة بأنها : النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، أعني من جهة ما هي مصنوعات أي مخلوقات . وبعبارة أبسط يقول : إن الفلسفة هي البحث عن الموجودات من حيث هي تدل على موجد لها .

ومن الواضح أنه : كلما كانت المعرفة بخلق الموجودات أتم ، كانت المعرفة بخالقها أتم. والشرع يدعونا إلى النظر في الموجودات ، وحث على ذلك في كثير من آيات الكتاب الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[1] ، ففي هذه الآية حث على وجوب استعمال القياس العقلي ، أو العقلي والشرعي معا ، ومثل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[2] وفيها حث على النظر في جميع الموجودات ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3] إلى غير ذلك من آيات لا تحصى، فيها النص على وجوب استعمال العقل في النظر إلى الموجودات ، وعلى البحث في مخلوقات الله والتفكر في الخلق توصلا إلى تمام العلم بالخالق .

فما دام الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها – فكأنه قد أوجب علينا أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي ، وبأتم أنواع النظر وهو البرهان العقلي المنطقي . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الضروري على من ينظر بالنظر العقلي أن يتقدم فيعلم أنواع البرهان وشروطه والقياس الصحيح والفاسد منه ، وبالجملة أن يعلم المنطق العلمي حتى يستطيع استخدامه في النظر العقلي إلى الموجودات .

ولا وجه للاحتجاج هنا بأن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة ، إذ لم يكن في صدر الإسلام ، وإلا لكان النظر في القياس الفقهي بدعة أيضا ؛ لأنه استنبط بعد الصدر الأول ؛ والفقهاء لا يرونه بدعة ، بل بالعكس يرونه أحد مصادر التشريع الأربعة وهي : الكتاب والسنة والقياس والإجماع .

---

(١) الحشر : ٢ .

(٢) الأعراف : ١٨٥ .

(٣) آل عمران : ١٩١ .

وهنا قد يقال أيضا : ولكن الذي وضع المنطق – أرسطو – ليس من المسلمين . وابن رشد يرد على هذا فيقول إنه من العسير بل من غير الممكن أن يفى واحد من الناس من تلقائه بمعرفة المنطق بجميع أنواعه ، بل لابد أن يستعين المتأخر بالمتقدم ، سواء كان المتقدم ممن يشاركنا في الملة أو كان لا يشاركنا ، لأن الصحة في المنطق تتوقف على العقل ولا تعتبر فيها المشاركة في الدين . لهذا .. يجب علينا أن نستفيد من كتب القدماء من غير المسلمين ممن بحثوا في المنطق ، ووضعوا قواعد البرهان والقياس العقلى ؛ إذ بهذه الاستفادة تم لنا الأداة التى نستغيث بها في تحصيل ما حثنا الشرع على تحصيله من العلم بالموجودات للدلالة بها على موجدها تعالى .

ويخلص ابن رشد من هذا كله إلى إثبات وجوب معرفة المنطق العقلي ، حسبما انتهى إليه علماء هذا العلم : مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

ومن ناحية أخرى ، فإن طباع الناس في الاقتناع متفاضلة متنوعة : فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان – إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك – ومنهم من يصدق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية . وعلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1]. ففي هذه الآية إشارة إلى الطرق الثلاث: البرهان ، والقول الخطابي ، والقول الجدلي .

ولهذا .. فإنا نعلم معشر المسلمين علما قاطعا أن النظر العقلى بالبرهان العقلى لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد عليه، وإلا لو كان يخالفه لما دعانا الشارع إلى ذلك وحثنا عليه .

فالفكرة الرئيسية في رسالة ابن رشد هذه هى : أن النظر العقلى بالبرهان العقلى يؤدي إلى الحق ، والشرع ورد بالحق ، والحق لا يتعدد ولا يضاد الحق . وعلى ذلك ، فمن الضروري أن يكون ما يأتي به النظر العقلي موافقا لما ورد به الشرع .

(١) النحل : ١٢٥ .

والأمر بعد هذا واحد من اثنين : فإما أن يكون ما أتى به البرهان العقلي سكت عنه الشرع ، أو يكون الشرع قد ذكره . فإن كان ما سكت عنه الشرع فلا تعارض هناك ، وإن كان مما ذكره الشرع فإما أن يكون ظاهره موافقا لما أدى إليه البرهان ، أو مخالفا ، فإن كان مخالفا فعلينا تأويله ، أي : تأويل لفظ الشرع ، وذلك بإخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير إخلال بها جرى عليه لسان العرب في المجاز ، وحينئذ سيتبين أن المخالفة كانت في الظاهر فحسب . ولقد أجمع المسلمون على أنه لا يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل ، والمشكلة بعد هذا في : أي المسائل حمل على ظواهرها ، وأيها تؤول ؟ وأول حل يتبادر إلى الذهن هو القول بأن ما أجمع عليه المسلمون في كلتا الحالتين هو الأولى بالاعتبار. ولكن الحل ليس بهذه البساطة؛ لأن انعقاد الإجماع بكل شروطه أمر عسير جدا إن لم يكن مستحيلا . ولهذا .. يرد ابن رشد على الغزالي فيما أخذه على الفلاسفة من آراء ظن هو- أي الغزالي- أنهم بها خالفوا الشرع، وأهمها مسألتان: **الأولى** أن الغزالي نسب إلى الفلاسفة أنهم يقولون إن الله لا يعلم الجزئيات، **والثانية** أنهم يقولون إن العالم قديم . وينفي ابن رشد عن الفلاسفة التهمة الأولى بقوله أن إطلاق العلم على الإنسان غير إطلاقه فيما يتعلق بالباري تعالى ، فعلم الباري لا يجوز أن يوصف بأنه كلي أو جزئي فلا معنى للاختلاف في هذه المسألة ، أعني في تكفير الفلاسفة بها أو عدم تكفيرهم ؛ لأن المقصد مختلف في الحالتين ، بل علم الله علم خاص يحيط بكل شيء ، كذلك الأمر في مسألة قدم العالم ، أي وجوده منذ الأزل ، فالاختلاف فيها راجع أيضا إلى التسمية ، فالفلاسفة ليسوا متفقين على رأي في هذه المسألة ، كذلك لو تصفحنا من جهة أخرى ظاهر الشرع وجدنا أن صورة العالم هي المحدثة . أما نفس الوجود والزمان فمستمر من الطرفين ، أعني أنه منذ الأزل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ**

أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[1] فهذه الآية تقتضي بظاهرها أنه كان ثمة وجود قبل هذا الوجود- وهو: العرش والماء، وزمان قبل هذا الزمان الذي هو حركة الفلك ، وكذلك من حيث الأبد ، أي استمرار الوجود أبدا ، بدليل الآية : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[2] .

وينتهى ابن رشد إلى القول بأن الشرع في هذا على ثلاث مراتب: أمور لا يجوز فيها التأويل وهى المبادئ ، وأمور ليست بمبادئ يجوز فيها التأويل ، وأمور ثالثة بين بين .

والخلاصة إذا : أن طرق الإقناع ثلاث : البرهانية ، والخطابية ، والجدلية .

وليس في طباع الناس كلهم أن يقبلوا الطرق البرهانية ؛ لأنها تحتاج إلى استعداد ذهني وتحصيل خاص . ولكن أغلبهم يكتفون بالطرق الخطابية ، وبعضهم – وهم قلة – يطلبون الطرق الجدلية ، وهم علماء التوحيد . أما الطرق البرهانية فلا تصلح إلا لأهل الفلسفة . وعلى هذا .. فالناس في الشريعة على ثلاثة أصناف : صنف ليسوا من أهل التأويل اليقينى ، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة أي صناعة الحكمة أعنى الفلسفة . وهذا التأويل العقلي البرهاني ليس ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل ، فضلا عن الجمهور .

ويلح ابن رشد في توكيد هذا المعنى ، أعنى : صرف الجمهور عن كتب التأويل اليقينى ، لأنها للخاصة من أهل الفلسفة وحدهم ، هم الذين يفهمونها ويدركون حقائقها . أما الجمهور فلا شأن له بها ، وكذلك أهل الجدل من الفقهاء والمتكلمين لا شأن لهم بها .

وهكذا.. ينتهي رأي ابن رشد وغيره من المفكرين إلى بيان أن «الفلسفة والشريعة متفقتان ؛ لأن كلتيهما تقرر الحق ، والحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » .

* * *

(١) هود : ٧ .
(٢) إبراهيم : ٤٨ .

الشاطبي

ابن شاطبة الأندلسية ، «القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي» أحد مجددي القرن السادس الهجري ، وهو في الوقت نفسه واحد من العلماء الصالحين الذين تركوا بلادهم ، واختاروا مصر ليتخذوا منها مقرا لحياتهم ، ومثوى لرفاتهم ، ومنطلقا لعلمهم ، وأعداد هؤلاء الصالحين الذين شرفت مصر باستقبالهم أعداد ضخمة . ومصر دائما تفتح ذراعيها لكل من قصدها ، خاصة إذا كان من أولياء الله الصالحين ، فلن يجد غيرها مكانا أكثر أمنا وأمانا ، ولن يجد أفضل من ناسها ترحيبا وتقديرا . والشيخ القاسم الشاطبي أحد هؤلاء الصالحين الذين تركوا مواطنهم الأصلية وجاءوا إلى مصر ، حيث وفد من بلاد الأندلس نازحا إلى مصر . وتكون الإسكندرية هي المدينة التي تستقبله ، فلا يتركها ويستقر فيها حتى الوفاة . ولم تكن الإسكندرية بأقل وفاء لمن زارها وفضلها عن مدن الدنيا ، فقد خصصت لهذا الشيخ الصالح واحدا من أحيائها الكبيرة ، وهو (حي الشاطبي) لينسب إليه ، يتوسطه مسجد باسمه . يضم ضريحا لرفاته الطاهر .

ولقد اجتمعت في اسم الشيخ الشاطبي بعض سمات الثقافة العربية ، وقدرتها على الأخذ والعطاء ، التأثير والتأثر . فإذا كان اسمه هو القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي . فإن ذلك يعني دلالة اللغة العربية على الاستيعاب من ناحية ، وقدرتها على الامتداد بين الأمم والشعوب من ناحية أخرى . فكلمة «فيره» – بكسر الفاء وسكون الياء ، وتشديد الراء مع ضمها – معناها الجديد ، والرعيني نسبة إلى رعين باليمن ، والشاطبي نسبة إلى مدينة شاطبة في بلاد الأندلس ، والقاسم على اسم

ابن النبي – ﷺ – فانظر كم من الدلالات والمعاني يحملها هذا الاسم في لغتنا العربية، وهو أمر قد لا يتوافر كثيرا في أي لغة من اللغات الأخرى .

ولد الشاطبي كغيره من آلاف المواليد سنة 538هـ بمدينة شاطبة بالأندلس . صحيحا سليما ، إلا أنه لسبب أو لآخر ، فقد بصره وهو لم يزل طفلا صغيرا . فلما شب لم يكن أمامه غير تعلم علوم الدين . بادئا بحفظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف . متقنا للقراءات في فترة وجيزة ، أذهلت كل من عرفه من معلميه وأقاربه الذين نصحوه بالسفر إلى مدينة بلنسية القريبة من شاطبة . وهي مدينة تموج بالأحداث الوطنية ، وبالتيارات الفكرية ، وتمتلئ بالعلماء والفقهاء ، خاصة وأن الثقافة العربية لم تكن قد غربت بعد عن الأندلس ، بل كانت لا تزال عزيزة قوية.

في هذه المدينة الأندلسية «بلنسية» ذات التاريخ العربي المجيد درس الشاطبي الحديث على أصوله ، والنحو والأدب والفقه والتفسير في أمهات كتبه . يعاونه في سرعة التحصيل واتساعه استعداد خاص لتقبل العلوم ، وذكاء خارق لالتقاط ما يفيده ، وملاحظة حادة لتمييز الأصيل من الدخيل .. وغيرها من سمات هيئته للتميز والنبوغ والتفرد بين طلاب العلم .. وما هي إلا فترة غير طويلة إلا وأصبح الشاطبي إماما في النحو واللغة ، وراوية للشعر ، إلى جانب كونه فقيها محدثا ، له وجهات نظر يحترمها غيره من العلماء .

وطبيعي .. وقد أصبح هذا الشيخ الصالح على هذا النحو من العلم والمعرفة والتفقه ، أن يقوم بمسئولية الخطابة في مساجد مدينة بلنسية ، ويتجمع حوله الناس لما لمسوه منه من محجة وقوة بيان ، ويقتنع هو بما يؤدى من رسالة . لكنه سرعان ما فر من هذه المسئولية ؛ محتجا على ما كان الأمراء يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها الشاطبي سائغة ولا مشروعة، وإنما هو تدخل في باب النفاق من المادح ، والرهبة والخوف من الممدوح .

ولهذه الأسباب وغيرها .. رحل الشاطبي عن بلاده، وهو في الرابعة والثلاثين قاصدا مصر والإسكندرية تحديدا كما رأينا، مع أنه ظاهريا أعلن أنه يغادرها طلبا للحج .

وفي ذلك يقول «السبكي» : «ولست أدري إن كان الشاطبي قد أتم فريضة الحج أو لم يتمها .. لكنه على أية حال ألقى عصا التيار في مصر مستوفيا فيها حظه من الثقافة التي تتصل بالقرآن ».

وبديهي .. أن تكون الإسكندرية هي أول المدن الثقافية المصرية التي يدخلها بعد رحلته من الشمال الإفريقي . وكانت هذه المدينة وقتئذ زاخرة بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم . وكان أكبر علمائها في ذلك الوقت : الإمام الحافظ «صدر الدين السلفي الأصفهاني» ، فطلب اللقاء به أملا في أن يستوفي حظه من علم الحديث وتفسيره. وما هي إلا فترة قصيرة حتى ذاع اسمه ، وعلا صيته ، بين تلاميذ الإمام السلفي ومدرسته ، إلى درجة أنه كان يعيد الدرس على زملائه في غياب أستاذه . ولم تكد تمر بضع سنوات حتى أصبح الشاطبي شيخا لمدرسة أسسها له «القاضي الفاضل» تحت اسم (المدرسة الفاضلية) . تقديرا لعلم الشاطبي من ناحية ، وتخليدا لاسم مؤسسها من ناحية أخرى ، ولكنها على أي حال كانت من الجوانب الإيجابية في ذلك الزمن .

والجدير بالذكر .. أن كل من تناول شخصية الإمام الشاطبي بالترجمة ، أطنبوا في وصف مواهبه . فقد قالوا عنه بأنه : أعجوبة أهل زمانه في الذكاء وسرعة البديهة، فلا يرتاب أحد مبصر لذكائه ؛ فلا يبدو منه ما يدل على العمى . وقالوا أيضا عن زهده وورعه بأنه كان عابدا مخلصا فيما يقول ويعمل ، منقطعا للعلم والعمل ، يتجنب فضول الكلام ، غير ناطق إلا بما تدعو إليه الضرورة . وقالوا في طهره

ونظافته وحسن مظهره بأنه كان لا يجلس للقراءة إلا على طهارة ، وفي هيئته جلال ، وفي أحاديثه خشوع واستكانة، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه .

وأما عن خلقه وعزة نفسه وترفعه عن الصغائر : فيحدثنا ابن شامة قائلا : «حكي أن الأمير «عز الدين» بعث إلى الشاطبي يدعوه للحضور عنده .فغضب من هذه المعاملة ، وشعر بأنها إهانة . إذ كيف يعامل الأمراء علماء الدين بهذا الاستهتار ، فبعث إليه بشعر مع تلميذه «عثمان بن عمر» قال فيها :

قل للأمير نصيحة　　　لا تركنن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى　　　أبوابكم لا خير فيه

وقد تتلمذ على يدي الشاطبي تلاميذ كثيرون يتقدمهم « الشهاوي » و«ابن الحاجب» و«ابن شامة» . وقد ظل خادما للقرآن ناشرا للعلم حتى توفي عام 594 هـ ، ودفن بالإسكندرية في الحي المعروف باسمه حتى الآن .

* * *

أبو الفرج الجوزي

«جمال الدين بن عبد الرحمن بن محمد الجوزي» المنتهى نسبه إلى أول الخلفاء أبي بكر الصديق – رضى الله عنه – والمعروف في التاريخ الإسلامى «بأبي الفرج الجوزي القرشي» يعتبر من مجددي القرن السادس الهجري حيث ولد عام 514هـ ، وتوفي عام 597هـ ، وكما يقول عنه مؤرخوه وفي مقدمتهم : الشيخ «عبد المتعال الصعيدي»: «كان شديد التعصب للمذهب الحنبلى حتى نال ما ناله من الأذى» حفظ القرآن، وطلب العلم على أيدي كبار علماء زمانه ، ولما تحقق له ذلك اشتغل بالوعظ على الرغم من حداثة سنه . وكان الناس يرتاحون إلى أسلوبه وطريقته في الوعظ ، فكانوا يقصدونه من كل فج لسماعه ، فاشتهر بهذا أمره بينهم ، وذاع صيته بين العامة والخاصة ، وعظم شأنه في عهد الوزير «أبو هبيرة» ، ولما ولي المستنجد بالله الملك خلع عليه خلعة مع الشيخ عبد القادر وأمثاله، وأذن لهم في الجلوس بجامع القصر، فتكلم أبو الفرج في الوعظ ، واحتشد القوم على مجلسه ، كما كانوا يفعلون في كل مجلس لهم، وكان عددهم يتراوح على الدوام بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا .

ولما ولي المستضيء قوي اتصال أبي الفرج به ، وقد ألف كتاب : (المصباح المضيء في خلافة المستضيء) ، ثم كتاب : (النصر على مصر) بمناسبة عودة الخطبة للعباسيين بمصر وانقضاء عهد الفاطميين ، وقد حظى بهذا عند المستضيء وحصل له من القبول وحضور الملوك مجالسه ما لا يكاد يوصف، وقد تكلم يوم عاشوراء سنة 574هـ – 1178م ، وكان أمير المؤمنين حاضرا مجلسه ، فقال له أثناء وعظه : «لو أنني مثلت بين يدي السدة الشريفة[1] لقلت : «يا أمير المؤمنين ، كن لله سبحانه مع

(١) السدة : ما يجلس عليه كالمنبر ونحوه .

حاجتك إليه ، كما كان لك مع غناه عنك ، إنه لم يجعل أحدا فوقك ، فلا ترض أن يكون أحد أشكر له منك » . فتصدق أمير المؤمنين يومئذ بصدقات كثيرة ، وأطلق بعض المحبوسين ، وتقدم في هذه السنة بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل ، وحصل لأتباع مذهبه تعظيم زائد ، فجعل الناس يقولون لأبي الفرج : هذا كله بسببك ، فإنه ما ارتفع هذا المذهب عند السلطان إلا بسماع كلامك .

وكان أبو الفرج كثير التأليف ، ولقد ذكروا أنه كان يكتب في اليوم أربع كراريس ، وكان له في كل علم مشاركة ، وقد سئل عن عدد مصنفاته فقال : زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفا . ومن هذه المصنفات ما هو عشرون مجلدا ، ومنها ما هو كراس واحد ، وكان كثير الاطلاع على مصنفات الناس ، حسن التبويب والترتيب ، ومن مصنفاته : (المغني في التفسير) ، (زاد المسير في علم التفسير) ، و(عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ) ، إلى غير هذا من آثاره الفكرية التي أشار إليها مؤرخوه من العلماء العرب مع الأجانب ، خاصة ما سجله هؤلاء الأجانب في دائرة المعارف الإسلامية ، وتأثر بها بعض الدارسين العرب . ولعلنا نقرأ معا ما كتبه «الشيخ عبد المتعال الصعيدي» :

« كانت حياة أبي الفرج في هذا ، حياة واعظ قضاها في أمر الناس بالتقوى ، وحثهم على القيام بالطاعات ، وترك المحرمات ، وقد رضي الناس بهذا منه ، ورضي الملوك أيضا ؛ لأنه كان يحث الناس في وعظه على لزوم الجماعة ، وعدم الخروج على الطاعة ، وهذا كان أقصى ما يطلبه الملوك من واعظ مشهور ملك عقول الناس ، واستهوى بوعظه أفئدتهم وقد أفاد أبو الفرج بهذا كثيرا في دنياه ، واستفاد كثيرا لأهل مذهبه ، ولا شيء عليه أن يستفيد من هذه الفوائد لنفسه وأتباعه ؛ لأن هذا يوافق نظره إلى الدنيا على ما سيأتي في الكلام على كتابه : (تلبيس إبليس) ولكن ما كان يأخذه منهم جعله يغضي في وعظه لهم عن مصارحتهم بما كان يجب أن

يصارحوا به ، وهو قيام حكمهم على الاستبداد ، وعدم أخذهم فيه بالشورى ، وغفلتهم عن النهوض بالرعية ، وإهمالهم العمل على استعادة ما ضاع من مجد الإسلام ، واسترداد ما ذهب من حضارته ، قبل أن يسبقه غيره في ميدان الحضارة ، ويتقدم عليه في العلوم والمعارف ، فلا يكتفي في وعظه للملك بأن يطلب منه أن يكون شكره لله فوق شكر غيره ، لأنه لم يجعل أحدا فوقه ، فلا يفهم الملك من هذا إلا أنه يطلب منه أن يتصدق كثيرا ، وأن يطلق بعض المحبوسين ، وأن يقوم بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل ، مع أن هذا الملك لم يكن فوق الناس جميعا كما ذكر أبو الفرج ، وإنما كان يعيش سجينا في بغداد ، وقد ضاعت ممالكه باستيلاء من استولى عليها من السلجوقيين وغيرهم ، ولم يكن إلا ملكا صوريا لا حول له ولا قوة ، فكلمة أبي الفرج هذه إما غفلة عن هذه الحقيقة ، وإما ملق ومداهنة لا يغنيان من الحقيقة شيئا » .

كذلك .. يضيف الشيخ عبد المتعال الصعيدي : «وقد كان مع هذا في أبي الفرج من التشدد في الدين ما في غيره من أتباع ابن حنبل ، فكان يذم التأويل في الدين ، وينظر بعين البغض إلى الفرق التي خالفت سنة السلف في ترك التأويل ، ولا يرضى عن الأشعرية الذين حاولوا أن يقفوا في ذلك موقفا وسطا بين المعتزلة والقدامى من أهل السنة ، فلم يصل في وعظه إلى السمو الذي يداوي جراح هذه الفرقة الدينية . وينشر التسامح بينهم في خلافاتهم . وقد كان عليه أن يستغل انقياد الجماهير له في ذلك الغرض النبيل . ليجمع بين فرق المسلمين ، ويزيل ما بينهم من تشاحن وتخاصم . وقد حكي أنه وقع في عهده نزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي ، ووقع اتفاق الفريقين بما يقوله أبو الفرج في ذلك . فأقاما من يسأله عنه وهو على الكرسي في مجلس وعظه ، فقال على البديهة : أفضلهما من كانت ابنته تحته . ونزل في الحال حتى لا يراجع فيما قال ، فكل من الفريقين احتج بها لنفسه .

وما كان لأبي الفرج أن يتهرب عن الجواب الصريح في هذه المسألة ، ولكن تهربه بهذا الشكل يدل على مبلغ حرصه على إرضاء تلك الجماهير المنقادة له في وعظه، وأنه كان يسلك فيه مسلكا لا يتعدى حثهم على التقوى ، وأنها هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وما إلى هذا من الأمور التي لا يزال الوعاظ يدورون في دائرتها ، ولا يكادون يتعدونها في وعظهم ، حتى مج الناس أسلوبهم في الوعظ ، وصاروا يسمعونه فلا يتأثرون به ؛ لأنه كلام يسمعونه كل يوم ، ولا يصل إلى علاج النكسات الرجعية التي وقعوا فيها ، وكانت السبب في ضياع مجدهم ، وتأخرهم في دنياهم وأخراهم » .

ومن ظاهر قول الشيخ الصعيدي ، يمكن القول بأنه : لو أن أبا الفرج لم يؤثر في ذلك إرضاء أهل السنة والشيعة للامهم على الاشتغال بهذه المسألة التافهة ، لأنها من المسائل التي لا تقدم ولا تؤخر في الدين ، ومع هذا فرقت كلمة المسلمين ، وجعلتهم فريقين يعادي بعضهم بعضا ، فيكون الاشتغال بها حراما وإثما ؛ لأنه يؤدي إلى استمرار النزاع بين المسلمين ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم الأفضل من أبي بكر وعلي ، وهو الذي سيتولى حسابهما ، وقد مضى أمرهما وانتهى ، ومضى الخلاف بينهما على الخلافة في هدوء ورفق ، لم يؤد إلى تفريق كلمة المسلمين ، وكان لأبي بكر رأيه في أنه قام بالخلافة على رضا واختيار من الناس ، وكان لعلي رأيه في أنه أحق بها منه لقربه من النبي - ﷺ - ، ولكنه مع هذا عاد فبايعه حذرا من تفريق كلمة المسلمين ، واحتفظ برأيه لنفسه ، ولم يحاول أن يحمل غيره عليه بوسيلة من الوسائل التي تؤدي إلى تفريق الكلمة ، ولا بأس علينا في أن نرى في ذلك رأيه ، ولكن لا يحق لنا أن نبالغ في ذلك ، مع أنه هو نفسه لم يبالغ فيه ، فإذا بالغنا فيه نكون مخالفين له ، ولا يصح أن يكون من شيعته من يوافق في رأيه ثم يخالفه في حد التمسك به ، لأنه لم يفرق به كلمة المسلمين ، فيجب أن نحافظ مثله على جمع كلمتهم .

إلى أن يقول – أي : الشيخ الصعيدي : « لكني لم أذكر أبا الفرج هنا لشيء من ذلك كله ، لأنه لا يستحق به أن يذكر بين مجددي هذا القرن ، ولكني ذكرته لموقف له من أسمى مواقف التجديد في كتابه : (تلبيس إبليس) فقد وقف فيه مع الصوفية موقفا يجب أن يذكر له في هذه الناحية من التجديد ، إذ وفى القول حقه في أمرهم ، ونطق بحكم الدين في تصوفهم ، وكان في هذا صريحا لا يخشى طغيان سلطانهم في هذا القرن على العامة وأشباه العامة من المسلمين ، على عكس حاله فيما سبق » .

ثم نعود إلى كتابات أبي الفرج الجوزي نفسه في هذا الصدد لنجده قد أبطل أولا نسبة تصوفهم إلى أهل الصفة من أصحاب النبي – ﷺ – فذكر **أولا** : أن أهل الصفة إنما قعدوا في المسجد ، وأكلوا من الصدقة بحكم الضرورة ؛ لأنهم كانوا فقراء يقدمون على المدينة ، ولا أهل لهم ولا مال ، فبنى لهم النبي – ﷺ – صفة في مسجده ليأووا إليها ، ويناموا فيها . فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال ، وخرجوا من صفتهم يطلبون الدنيا التي فتحت لهم .

ثم ذكر ثانيا : أن الأولين منهم ذكروا أن التصوف عندهم هو رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق والفضيلة ، من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة ، ولكن إبليس لبس عليهم في أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم ، وكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني ، فزاد تلبيسه عليهم ، إلى أن تمكن من المتأخرين منهم كل التمكن .

فأول ما لبس عليهم أنه صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات ، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة ، فرفضوا ما يصلح أبدانهم ، وشبهوا المال بالعقارب ، ونسوا

أنه خلق للمصالح ، وبالغوا في الحملة على النفوس ، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة ، ولكنهم على غير الجادة .

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات ، وصنفوا لهم في ذلك ، مثل : «الحارث المحاسبي» ، وجاء آخرون ، فذهبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها ، من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق ، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة ، ثم ما زال الأمر ينمى ، والأشياخ يضعون لهم أوضاعا ، ويتكلمون بواقعاتهم ، ولم يزل بهم البعد عن العلماء حتى رأوا ما هم فيه أو في العلوم ، وسموه : العلم الباطن ، وجعلوا علم الشريعة : العلم الظاهر ، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادعى عشق الحق والهيمان فيه ، فكأنهم تخيلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به ، وهؤلاء بين الكفر والبدعة ، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ، حتى فسدت عقائدهم ، فمنهم من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا ، وجاء «أبو عبد الرحمن السلمي» فصنف لهم كتاب: (السنن) ، وجمع لهم حقائق التفسير ، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم ، وصنف لهم «أبو النصر السراج» كتابا سماه : (لمع الصوفية) ذكر فيه كثيرا من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ، وصنف لهم «أبو طالب المكي» كتاب : (قوت القلوب) فذكر فيه الأحاديث الباطلة ، وما لا يستمد فيه إلى أصل من الأصول الصحيحة ، وردد فيه قول : - قال بعض المكاشفين - وهذا كلام فارغ لا يصح التعويل عليه ، وصنف لهم «أبو نعيم الأصبهاني» كتاب : (الحلية) وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ، وصنف لهم «عبد الكريم بن هوزان القشيري» كتاب : (الرسالة) فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء ، وصنف لهم «أبو حامد الغزالي» كتاب : (الإحياء) فجاراهم في كثير من أحوالهم ، حتى ذكر أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف

إلى الخيرات ، لأن أقل ما فيه الاشتغال بإصلاحه عن ذكر الله عز وجل ، ثم أباح لهم السماع بأشياء نزل فيها عن رتبته في الفهم والعلم .

ثم ذكر **ثالثا** : أن التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، وأنه يدل على الفرق بينهما : أن الزهد لم يذمه أحد ، وقد ذموا التصوف ، ولكن إبليس قد لبس على الزهاد أيضا ، لأنهم سمعوا في القرآن والحديث ذم الدنيا ، فلبس عليهم إبليس بأنهم لا ينجون في الآخرة إلا بترك الدنيا والفرار منها ، فخرجوا على وجوههم إلى الجبال، وبعدوا عن الجمعة والجماعة ومجالس العلم ، حتى يصير الواحد منهم كالوحش ، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي ، وبهذا أعرضوا عن العلم اشتغالا بالزهد ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأن الزاهد لا يتعدى نفعه عتبة بابه ، والعالم نفعه متعد إلى غيره ، وكم رد إلى الصواب من متعبد ، وكذلك ظنوا أن الزهد ترك المباحات ، فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير ، ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس بدنه ، ويعذب نفسه بلبس الصوف ويمنعها الماء البارد ، ولم تكن هذه طريقة الرسول - ﷺ - ، ولا طريقة أصحابه ، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئا ، فإذا وجدوا أكلوا ، وكان النبي - ﷺ - يأكل اللحم ويحبه ، ويأكل الدجاج ، ويحب الحلوى ، وقد كان رجل يقول : أنا لا آكل الخبيص(1) لأني لا أقوم بشكره ، فقال الحسن البصري : هذا رجل أحمق ، وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟ ..

وكان سفيان الثوري إذا سافر حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج(2) ، ولما تغالى أولئك الزهاد ومن تبعهم من الصوفية في ترك المباحات والتقليل من الطعام جعلوا ذلك شرطا فيمن يريد الدخول في زمرتهم من الشبان والمبتدئين ، مع أنه من أضر الأشياء على الشبان الجوع ، فإن الشيوخ الكهول يصبرون عليه ، أما الشبان

(١) الخبيص : حلوى من التمر والسمن .

(٢) الفالوذج : حلوى من الدقيق والعسل .

فإنهم أقدر على هضم الطعام ، فلا يمكنهم أن يصبروا عليه ، فإذا لم تجد معدتهم الغذاء أخذت من الفضول المجتمعة في البدن ، فتغذي الجسم به وتفسده .

ثم ذكر أن إبليس كان يلبس على المتقدمين من الصوفية لصدقهم في الزهد ، فيريهم عيب المال ويخوفهم من شره ، فيتجردون من أموالهم ، ويجلسون على بساط الفقر ، وكانت مقاصدهم صالحة ، إلا أن أفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم ، وهذا الفعل لا يلام صاحبه عليه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادخرها لنفسه ، أو كانت له صناعة يستغني بها عن الناس ، أو كان المال عن شبهة فتصدق به ، فأما إذا أخرج المال الحلال كله ثم احتاج إلى ما في أيدي الناس وأفقر عياله ، فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم ، أو يأخذ من أرآب الظلم والشبهات ، وهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه ، وقد ذكر الحارث المحاسبي في هذا كلاما كثيرا ، وشيده أبو حامد الغزالي ونصره، والحارث فيه أعذر من أبي حامد ، لأن أبا حامد كان أفقه ، ولكن دخوله في التصوف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه ، وعنده أنه ينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته ، فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه، فهو محجوب عن الله عز وجل ، وهذا كله خلاف الشرع والعقل ، وسوء فهم للمراد من المال ، لأن الله قد عظم قدره وأمر بحفظه ، إذ جعله قواما للآدمي ، وما جعل قواما للآدمي الشريف فهو شريف ، فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا** ﴾[1] . وقد صح عن رسول الله - ﷺ - أنه نهى عن إضاعة المال ، وقال لسعد : « **لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس** » ، ولا ينكر أنه يخاف من فتنة المال ، وأن جمعه من غير وجهه يعز ، فمن اقتصر على كسب البلغة[2] من حلها لهذا أمر لابد منه ، وأما من قصد جمعه

(١) النساء : ٥ .

(٢) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة .

والاستكثار منه بطريق الحلال فينظر في مقصوده ، فإن قصد به المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه ومن تلزمه نفقته ، وادخر لحوادث زمانه ، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح ، أثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات .

وذكر أن الفقر مرض ، فمن ابتلي به فصبر عليه ، أثيب على صبره ، ولهذا يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، لمكان صبرهم على البلاء ، أما المال فهو نعمة ، والنعمة تحتاج إلى شكر ، والغني وإن تعب فهو كالمفتي والمجاهد ، والفقير كالمعتزل في زاوية ، فهو في أمن أكثر من المفتي والمجاهد .

وأيضا ذكر أن هذا كان حال المتقدمين من الصوفية كانوا يخرجون من أموالهم زهدا فيها ، فقصدوا الخير بذلك ، ولكنهم غلطوا في الفعل ، فأما متأخروهم فقد مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان. فمنهم من يقدر على الكسب ولا يعمل، ويجلس في الرباط أو المسجد ، ويعتمد على صدقات الناس ، وقلبه معلق بطرق الباب ، ومنهم من يخرج فيقصد بيوت كبار الظلمة ، ولا يتورع عن طلب ما يريده من أموالهم ، وقد دخل بعض الصوفية على أمير منهم فوعظه فأعطاه شيئا فقبله ، فقال له الأمير : كلنا صيادون ، وإنما الشباك تختلف .

ثم ذكر أبو الفرج كثيرا غير هذا في الكلام عن الصوفية ، وكله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة في هذه الناحية من التجديد ، ولكن السيل كان جارفا ؛ لأن العامة كانت تتهافت على أولئك المتصوفة ، وكان هو رجعيا جامدا فيما عدا هذه الناحية من التجديد ، فكان في العقائد يرى الوقوف عند ظواهر النصوص ، ويكره الخوض في علم الكلام ، ويذهب في هذا مذهب الشافعي وابن حنبل وغيرهما من السلف ، وينقل عن الشافعي أنه كان يقول : «لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام » وينقل عن ابن حنبل أنه كان يقول : «لا يفلح

صاحب كلام أبدا ، علماء الكلام زنادقة» . وكان مع هـذا عـلى صـلة حـسنة بأولئـك الملوك والأمراء الذين كان يأخذ على المتصوفة الاتصال بهم، كما سبق في تاريخ حياته، فلم يسع في إصلاح حكمهم ، ولم يجتهد في جعله حكما شوريا لا استبداد فيـه ، فكـل هذا ونحوه قلل من شأن نزعته التجديدية في التصوف ، ولم يجعل لهذا أثرا في القـضاء على نزعاته الرجعية ، ولا في منع المسلمين من الوقـوع في الوهـدة التـي يجـرهم إليهـا أولئك المتصوفة .

وهكذا .. كان مجددنا أبو الفرج الجوزي مجتهدا وجادا في أقواله وأفعاله . ولهذا ولغيره اعتبره مؤرخوه ونقاده من مجددي القرن السادس الهجري .

* * *

الزمخشـري

«في هذا الفصل ، نحن ضيوف على مـادة فكـر أحـد مجـددي القـرن الـسادس الهجري، وهو «أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري» ، وقبـل التعـرف عـلى دوره التجديدي سواء في الفقه أو الأدب أو علـم الكـلام أو غيرهـا ، نـسجل بعـضا مـن الصورة القلمية التي كتبها الإمام الشيخ «محمد أبو زهـرة» . فـما أجملهـا مـن صـورة حيث تكون بقلم مجدد من المحدثين ، عن مجدد من الأقدمين حيث يعرف قـدر مـن سبقوه في العلم والفضل . يقول الإمام «أبو زهـرة» في دراسـة كـان قـد كتبهـا عـن الزمخشري (بمجلة العربي الكويتية) : كان الداخل إلى البيت الحرام في الثلـث الأول من القرن السادس الهجري يجد رجلا قد التف حوله طلاب الأدب ، ورواة الشعر ، ونقلة المواعظ ، وطلاب التفسير ، وسائر علوم القرآن والحـديث . وقـد كـان ذلـك الرجل القوي في إيمانه ، الغزير في علمه ، النافذ في بـصيرته .. ضـعيفا في بدنـه ، قـد قطعت إحدى رجليه ، فاستعاض عنها بخشبة تشبه الرجـل ، وإذا سـار بهـا سـترها بثوبه الفضفاض ، فيظنه الناس أعرج، ولا يظنونه مقطوع الرجل ، وكان يفعل ذلك سترا للعاهة ، واستعلاء على الضعف البدني ، ودفعا للريبة ، وتجملا أمام الناس .

ثم نمضى مع هذه الدراسة وغيرها ، مما كتب عن هـذا المجـدد العظـيم ، فنـراه وقد اختار بيت الله الحرام كمجاور دائم لهذا البيت العتيق ، ليستمر على ذلك شـطرا كبيرا من حياته .. ولتواجده على هذا النحو . ولذلك أطلقوا عليه هناك : «جـار الله» أو مجاور البيت الحرام ، وكان طلاب العلم والمعرفة يلتفون حوله لعبقريـة أدركوهـا عنده ، واستعداد دائم لإجابة أي سؤال أو استفسار يوجهونـه إليـه ، وكأنـه البحـر

الزاخر لكل كلام العرب، أو الحكيم المستنير الذي ينشر الحكمة والموعظة في مجالسه، أو المتكلم الذي تجيء إليه الحجج مسترسلة دون انقطاع عند الجدل والمناقشة ، أو المفسر للقرآن الكريم الذي يلمح الإشارات البيانية في آياته بذوق مرهف ، وأفق واسع ، وإيمان واضح .. وغير ذلك مما يرد في هذه الآيات الكريمة من المعنى واللفظ معا ، وبعقل مدرك ينفذ إلى اللب ، ولا يقف عند الغلاف ، وبقلب مؤمن يخشع أمام الحقائق القرآنية ، وتضيء في قلبه التجليات الربانية وهو يقرأ ويتفهم .

والآن .. هل نحن في حاجة إلى التعرف على ذلك الإمام من لوحة حياته التى تقول إنه ولد سنة 463هـ بقرية زمخشر وهى من قرى خوارزم ؟ولعل هذه القرية ما كانت لتذكر على لسان أحد من غير أهل القرى التى تجاورها ، ولكنها الآن تذكر في الشرق والغرب ، وفي عدة لغات غير العربية ، لأنها شرفت بنسبة «أبي القاسم جار الله الزمخشري» إليها ، فبعد أن كانت نكرة صارت مشهورة ، حتى إنها في الحقيقة لجديرة بأن تنسب إليه ولا ينسب هو إليها ، إذ هي عرفت به ، ولم يعرف هو بها .

ولم يعرف شيء عن أبيه ، ولكن عرفت أمه بالتقوى والرحمة ، والعطف على صغار الطير ، ولنسق لك كلامه في سبب قطع رجله ، وقد سئل عن ذلك ، فقال بشيء من الصراحة والوضوح الذي لا يفتقر إليه هذا المجدد : « دعاء الوالدة ، وذلك أني أمسكت عصفورا ، في يوم من أيام الصبا الأولى ، وربطت برجله خيطا فأفلت من يدي ، ودخل خرقا [ثقب في الحائط] فجذبته فانقطعت رجله ، فتألمت له والدتي . وقالت : قطع الله رجلك ، كما قطعت رجله . فلما رحلت إلى بخارى في طلب العلم ، سقطت عن الدابة في أثناء الطريق ، فانكسرت رجلي وأصابني من الألم ما أوجب قطعها .

إن هذه القصة لتنبئ عن أمرين ، أولهما : رقة قلب أمه ، ولطف شفقتها وشدة تأثرها من رؤية مواطن الألم أيا كان موضعه ، والرحمة من صفات المؤمن المخلص – وثانيهما : أن الزمخشري مع أنه معتزلي يرد الأمور إلى أسبابها ، فقد كان لفرط إيمانه

بقدر الله تعالى ، وبأن كل شيء بقدر مقدور ، يعتقد أن استجابة الله تعالى للدعاء لها شأنها في سير الأقدار ، وفيما يكتبه سبحانه وتعالى لعباده من غير تغيير ولا تبديل في علمه أو إرادته أو قدره .

وهكذا .. ترى هذا المجدد وقد شاقه العلم ، وهنا آوى إلى العلم في تلك البلاد النائية من أرض الإسلام ، وانتقل بفضله الأدب من ربوع الكوفة والبصرة وبغداد إلى همذان والري وخوارزم ، وذخرت اللغة العربية في القرنين : الخامس والسادس بذخائر الفكر الإسلامي والفلسفي التي أنتجها العلماء الذين نشئوا وعاشوا في تلك البلاد ، وأنتجوا ، وأخرجوا النفائس والموسوعات في الفقه والتفسير واللغة والأدب.

لقد خرج من هذه البلاد أفذاذ العلماء والأدباء «كبديع الزمان الهمذاني ، والخوارزمي» ، وخرج منها الفقهاء والمفسرون أمثال : «الشيرازي» صاحب كتاب (المهذب) في الفقه المقارن ، و«الفخر الرازي» بحر العلم ، و«الغزالي» صاحب الحكمة ، وخرج منها علماء في شتى العلوم ، «كالشهرستاني» ، صاحب (الملل والنحل) و«أبو الريحان البيروني» المؤرخ والرياضي والفيلسوف .

انتقل الزمخشري من بلدة زمخشر إلى بخارى ، وهناك تلقى الفقه الحنفي من أئمته بها ، وكان لفقهاء الحنفية بتلك البلاد النائية – مقام في الفقه والجدل والأصول، وحسبي تعريفا بمقامهم أن يكون من بينهم شمس الأئمة «الحلواني» وتلميذه شمس الأئمة « الرضي » شارح كتاب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة .

تلقى الزمخشري الحديث عن أئمة المحدثين في بخارى ، ثم تلقى الأدب واستحفظ الرواية على كبار الرواة بها ، وهكذا .. أخذ من كل دوحة من دوحات العلم أطيب ما تحمل من ثمار ، وأينع ما فيها من زهر ، حتى إذا تغذى أكمل الغذاء ،

وتمثل الغذاء في نفسه علما ناجحا مشرقا . أخذ يكتب في علوم مختلفة ، فكتب في شرح السنة وروايتها كتابه (الفائق) ، وهو فائق حقا ، وكتب في البلاغة كتاب (أساس البلاغة) ، وهو معجم لاستعمالات العرب وليس للكلمات فقط ، وكتاب (جواهر اللغة) وكتاب (مقدمة الأدب) . وقد أحصى ياقوت في معجمه عددا كبيرا من كتبه ، فيرجع إليه . ولعل أكثرها ذكرا وأبقاها أثرا كتابه (الكشاف) ، الذي يعتبر مرجعا ومصدرا للباحثين والدارسين ؛ حيث يعطي الزمخشري كتابه هذا من العناية ما لم يعطه كتبه الأخرى ، ذلك لأن مقام التفسير جليل خطير ، وهو مرتقى صعب لا يجرؤ عليه إلا من اجتمعت عنده ملكات في علم البيان وذوقه ، ونال من علوم القرآن والسنة أوفى قدر ، ومن حياة النبي الأمين - ﷺ - وسيرته بأكبر حظ ، وله مع ذلك عقل يلمع ، وقلب منير ، ونفس تحس . ولعل من الخير أن نترك الكلمة له ليعرفنا أوصاف المفسر ، فقد قال رضي الله عنه : « لا يفوض على شيء من تلك الحقائق أي : معاني القرآن إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعاني وعلم البيان .. وحرص على استيضاح معجزة رسول الله - ﷺ - بعد أن تكون أخذا من سائر العلوم ، جامعا بين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، وقد رجع زمانا ورجع إليه ورد ورد عليه ... وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها ، لاكزا جاسيا ، ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر .. قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويوصف » .

هذه صفات - في رأيه - من يتصدى لتفسير القرآن ليتعرف مواضع إعجازه ، وأسرار بلاغته ، ولقد كان يحسب أنه ليس من فرسان هذا الميدان ، ولذلك لم يفكر في سلوك ذلك المسلك الذي قد تتقاصر عنه همته .

ولكنه كان يذاكر المعتزلة من إخوانه في معاني القرآن ، وهم من كانوا يجمعون بين علم العربية والأصول الدينية ، فطلبوا إليه أن يكتب لهم تفسيرا يكشف عن أسرار التنزيل بعد أن تبين لهم أنه بهذا الأمر جدير ، لما كان يلقيه من تفسير لآيات كان يثير إعجابهم .

ولا عجب في ذلك ، على اعتبار أنه كان واسع العلم غزير المعرفة ، ومع ذلك يستعفي لعظم أمره ، وبعد إلحاح شديد أملى عليهم تفسير سورة البقرة ، واكتفى بذلك ليكون تفسيره مثالا يحتذى ومنهاجا ينتهجونه . وقد أسهب في تفسير سورة البقرة الذي أملاه . وقد اكتفى به وخصوصا أن الشيخوخة قد سارعت إليه . وقد حدث ما حرك همته ، ليتم ما ابتدأ ، ذلك أنه وهو يعاود الذهاب إلى المجاورة لبيت الله الحرام ، كلما مر على طائفة من أهل العلم وجد عندها شوقا لتقرأ ما أملاه .. ولما حل بمكة : حرم الله الآمن ، وجد «الشريف الحسيني أبا الحسن علي بن حمزة» ، وله في قلبه التقدير والمكانة ، فذكر له أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبته عن الحجاز بأن يقطع الفيافي ويفد عليه بخوارزم ليتوصل إلى ذلك الجزء من تفسير القرآن الذي أملاه ، ويخاطبه في إتمام ما بدأ .

وغير الشريف الحسيني كثير من العلماء والفقهاء كانوا يتطلعون إلى سماعه ؛ ولهذا لم يجد بدا من أن يتمم ما بدأ ، ولكن أنى له من قوة البدن ما يتمم البقية على منهاج ما ابتدأ ، وقد دخل في العشر السابعة . ويقول فيها : «ناهزت العشر التي سمتها العرب دقاقة الرقاب ، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى ، مع ضمان الكثير من الفوائد ، والفحص عن السرائر » .

لقد أتم التفسير في أقل من سنتين ، وهو يجاور بيت الله ، ويقرب من صديقه الشريف ، ويقول في ذلك : « وما هي إلا آية من آيات هذا البيت المحرم ، وبركة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم » .

لقد اتسم تفسير الزمخشري بسمات لم توجد في غيره ؛ فهو يعرف أسرار البلاغة في القرآن وأوجه إعجازه ، ويسبق إلى مدارك كانت بكرا لم يسبقه أحد إليها ، ومن جاء بعده من الذين كتبوا في التفسير البياني ، قبسوا منه الكثير ، ومنهم من اتبعه اتباعا وإن لم يبلغ شأوه ، إذ كان الفرق بين الفكرة الأصلية والمحاكية واضحا ، وما بلغ أحد في تفسير ، مبلغ الزمخشري في تعبيره .

وكان يذكر المعنى ابتداء ، ثم يذكر المناقشة حوله بقوله : فإن قلت .. ثم يجيب فيقول : قلت .. وإن ذلك هو المنهاج الذي ابتدأ في سورة البقرة ، وهو التزام للجدل الذي اتصف به المعتزلة وكانوا فيه بارعين .

والكتاب كان مفصل التفسير في البقرة ، وكان مجملا فيما وراءها ، وقد ذكر هو السبب ، وهو : أنه كتب الأول في قوته ، والثاني في شيخوخته ، ولأنه أراد أن ينتهي قبل أن يسبق إليه القدر . إذ صار يحسب أن وجوب الإتمام لم يكن وجوبا متراخيا ، بل كان الوجوب على الفور .

ومن الغريب .. أن الذين حاكوه أو قلدوه ، يجملون فيما أجمل ويفصلون فيما فصل ، وقد وجد عنده العذر ، ولا معذرة عندهم إلا أن يكون ضعف الهمة ، وضيق الذراع ، وقصور الباع . وهي خصال نجى الله منها هذا المجدد طوال حياته .

في هذا العصر الذي عاش فيه الزمخشري، كثرت كتابات المقامات، فكانت فيه : مقامات بديع الزمان الهمذاني، ومقامات الخوارزمي ... وغيرهما ، وكانت الكتابات الأدبية في ذلك الإبان ليست مرسلة ، ولكنها كانت مسجوعة ، فالنثر الفني السائد فيه السجع، ولم يكن لمثل الزمخشري، الحجة في اللغة، والكاتب المبدع، إلا أن يخوض مع الخائضين ، ولكنه في كتاباته الفنية المسجوعة ، لا يتجه إلى اللفظ من غير تجويد المعنى ، فما كان كغيره لا عمل له إلا النثر والكتابة، بل كان العالم الأصولي ، والفقيه، والمتكلم . فعنده ثروة المعاني قبل ثروة الألفاظ ، وتجاربه التي اكتسبها من رحلاته إلى

طلب العلم ، وإلى طلب جوار البيت المحرم ، قد أكسبته آفاقا في التفكير قفزت منها معرفة العلمية ، فكان نثره حكما جيدة مرسلة . وله في ذلك رسائل محكمة المبنى والنسج ، وفيها المعاني البكر والألفاظ الجزلة ، فكانت كعروس جميلة في ثوب العرس . ومن هذه الرسائل : (أطواق الذهب) ، و(الكلم النوابغ في المواعظ) ، و(نصائح الكبار)، و(نصائح الصغار)، و(مقامات في المواعظ)، و(نزهة المستأنس)، و(الرسالة الناصحة) ، و(ربيع الأبرار) ، وديوان خطب ، وديوان رسائل ، وغير ذلك من رسائل أخوية تضمنت معاني حكيمة .

ولنقبض قبضة من كتابه : (أطواق الذهب) تدل على سائر كتابته ، فقد جاء فيها في تغير الناس والأزمان ، «الدنيا أدوار والناس أطوار ، فالبس لكل يوم بحسب ما فيه من الطوارق ، وجالس كل قوم بقدر ما لهم من الطرائق ، فلن تجري الأيام على أبنيتك ، ولن تنزل الأيام على قضيتك » .

ويقول : « لا أحدثك عن بلد الشوم ، ذلك بلد الوالي الغشوم ، فإياك وبلد الجور وإن كنت أعز من بيضة البلد ، وأحظى أهله بالمال المثمر والولد » .

والزمخشري لم يعش على مائدة الأمراء والحكام ، ولذا لم يرض أن تكون آراء العلماء تابعة لأهواء الأمراء . ويقول في ذلك : « ما لعلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودونوها ، ثم رخصوا فيها لأمراء السوء وهونوها ، إنما حفظوا وعلقوا وصفقوا وحلقوا ليقمروا (يجمعوا) المال ، وييسروا » .

ويقول في بث روح الهمة : « لا تقنع بالشرف التالد ، فذلك الشرف للوالد ، واضمم إلى التالد طريفا ، حتى تكون بهما شريفا ولا تدل بشرف أبيك ، ما لم تدل عليه بشرف فيك » .

وهكذا .. نجد المعاني الكريمة في الألفاظ الحلوة والأساليب الرصينة . تطل علينا من أسلوبه العذب الجميل .

وقبل أن نغادر تلك الرياض الجميلة من آثار الزمخشري ، لابد أن نسجل حقيقتين :

إحداهما – أن هذا العالم الجليل لم يعرف أنه تملق أميرا ، ولم يؤثر عنه في كتاباته أنه مدح حاكما ، أو سخر قلمه لخدمة حاكم ، وأن المتتبع لرسائله إلى أصدقائه لا يجد فيها إلا عبير المودة ، وعرف الإخاء ، وروحانية الصداقة ، ولا يجد فيها ازدلافا لأمير قط .

الحقيقة الثانية – أنه كان شجاعا ، لا أمام الحاكم فقط ، بل أمام العلماء ، ارتضى أن يكون معتزليا في اعتقاده وقت أن كان مذهب المعتزلة في ذلك الوقت مضطهدا من الحكام ، مستنكرا من العلماء ، مزدريا من العامة ، فما جبن عن إعلانه ، والدفاع عنه والدعوة إليه . وقد اعتبر بعض العلماء من هناته في تفسيره حشره مذهب أهل الاعتزال فيه ، ولكن مع ذلك أجمع العلماء على أن ذلك لم يذهب بسلامة جوهره ، واشتماله على اللآلئ الفائقة .

ولقد كان لفرط شجاعته.. إذا استأذن على أحد قال للآذن: قل بالباب محمود المعتزلي.

ولفرط شجاعته ، كان يعلن أن القرآن مخلوق ، وهو رأي المعتزلة ، حتى لقد هم في افتتاحية كتابه التفسير أن يقول : «الحمد لله الذي خلق القرآن ... » ولكن أصحابه نهوه عن ذلك . وقالوا له : إن فعلت نفر الناس منه فلم ينتفعوا به . وعندئذ تطامن المعتزلي التقي النافع الذي يرجو الخير للناس ، وقبل أن يكتب في الافتتاحية : « الحمد لله الذي أنزل القرآن » .

والآن .. قد مضى الزمخشري إلى ربه ، وبعد ما يقرب من ثمانمائة سنة وخمسين من موته يتذاكر الناس فكره ، كأنه حاضر بينهم ، وهكذا .. كل شيء إنساني يفنى إلا ما تسجله المواهب ، وما تسجله النفس الحرة الطيبة ، والعقل المشرق المستقيم ، ومجددنا هذا أصدق مثل وأقوى دليل على ذلك .

* * *

فخر الدين الرازي

فخر الدين محمد بن عمر الحسين التميمي البكري الرازي ، من مجددي القرن السادس الهجري ، المولود عام 543 هـ ، والمتوفى عام 606 هـ بمدينة هراة .

بدأ في تعلم اللغة العربية وأجادها ؛ حتى يتعرف على فقهها وتعاليم دينها ، وعلم الكلام الذي برع فيه المسلمون إلى جانب الحكمة ، وأراد أن يتبحر في العلوم الدينية والعقلية، فتوجه إلى خوارزم التي كانت في العصر الوسيط قبلة للعلماء والفقهاء ، وجرى بينه وبين أهلها مناقشات ومحاولات ، جميعها تدور حول المذاهب والمعتقدات ؛ حيث كان أشعريا في التفكير ، شافعيا في المذهب ، فأخرجوه من خوارزم بسبب ذلك ، فقصد إلى بلاد ما وراء النهر ؛ فجرى له مثل ما جرى في خوارزم لنقاشه وجداله . فعاد إلى مسقط رأسه الري وكان بها طبيب ماهر ذو ثروة هائلة ، وكان له ابنتان ، وللرازي ولدان ، فزوجهما منهما . فلما مات هذا الطبيب آلت ثروته إلى بنتيه ، وبالتالي إلى ولدي الرازي ، وبذلك اتسعت ثروته ، واستطاع مواصلة السفر الذي كان يمنعه عنه قلة ماله ، وفي واحدة من أسفاره اتصل بصاحب مدينة غزنة وعامله في جملة من أمواله ، ليحصل من هذه العلاقة على مال وفير ليعود إلى خراسان ويتصل بسلطانها المعروف «بخوارزم شاه» الذي أكرمه ووضعه في أسمى المراتب والمراكز .

وإلى جانب الحرص على تنمية أمواله ، حيث كان يعتقد أنه بهذه الأموال يستطيع أن يحقق الكثير من الأغراض العلمية إلى درجة أن ابن خلكان ذكر عنه في كتابه : (وفيات الأعيان) أن «فخر الدين الرازي» فاق أهل زمانه في علم الكلام

والعلوم العقلية ، وعلوم الأوائل ، وأن له تصانيف مفيدة في جوانب كثيرة ، منها : تفسير القرآن الكريم حيث أحصى فيه كل غريب وعجيب، ومنها أيضا: علم الكلام، ومنها : علم أصول الفقه ، ومنها : الحكمة وشرح عيونها ، ثم منها في الطب حيث قام بشرح كتاب (القانون) لابن سينا، وأخيرا منها : في الفقه حيث شرح الوجيز، وغير ذلك من كتب ومؤلفات قام بوضعها في العلوم والفنون ، وكلها كما يذكر ابن خلكان ممتعة ومنتشرة ، حيث اشتغل بها الناس وقاموا بقراءتها رافضين بذلك كتب المستقدمين عليه، فكان أول من اخترع نظام الترتيب في الكتب، وذلك مما وضع وكتب ، فأتى بها لم يسبقه فيه أحد من العلماء .

كذلك يسجل الطبري في تاريخه أن الرازي تميز عن القدماء في الفقه وعلم الأصول والكلام والحكمة ، وأنه استطاع بها لديه من علم الرد على ابن سينا في إشاراته، هذا إلى جانب أنه طلب العمل في الكيمياء وضيع في تجاربها ومعاملها المال الكثير .

وللشيخ «عبد المتعال الصعيدي» رأي في مسألة تجديد الرازي في الإسلام مؤداه: أنه كان في العقائد مقلدا للأشعري ، وفي الفقه مقلدا للشافعي ، ولكنه كان يخالف أشعرية زمانه في تجافيهم النظر في الفلسفة، وعدم تأثرهم بمنهجها في البحث والتفكير . جمع بين الفلسفة وعلم الكلام ، ولعله كان أول من استخدم في علم الكلام كثيرا من مفردات الفلسفة وتعبيراتها مثل ذكر الجواهر والأعراض .. وغير ذلك من مسائلها ، فأخضع بذلك الفلسفة لعلم الكلام ، حتى صارت الفلسفة من أتباع هذا العلم الديني ، ولم تعد تدرس دراسة خاصة بها كما كانت قبل ذلك .

وفي ذلك .. ذكر ابن خلدون في مقدمته بأن المتكلمين الذين جاءوا بعد الغزالي خلطوا علم الكلام بمسائل الفلسفة ، فصارت كأنها فن واحد ضاربا مثلا بها فعله فخر الدين الرازي في كتابه المعروف بالحكم المشرقية ، ليقلده كل من جاء بعده من علماء الكلام. وبهذا يكون الرازي أول من اهتم بجمع معارف المتقدمين وتلخيصها،

وأول من أذاع الطريقة التقريرية الفلسفية في سائر العلوم من تفسير ونحو وبلاغة ؛ حيث اختصر كتابي «عبد القاهر الجرجاني» في البلاغة وهما : (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) في كتاب واحد اهتم فيه بالطريقة التقريرية في الفلسفة ، بخلاف الطريقة الأدبية التي اهتم بها عبد القاهر في كتابيه . فكان فخر الدين الرازي أول من أظهر الطريقة التقريرية في علوم البلاغة .

إلا أن هذه الطريقة التي كتب بها فخر الدين الرازي كتبه ، كانت على خلاف ما صار بعدها ؛ لأنها كانت في أول نشأتها ، وكان الأسلوب العربي لا يزال له قوته وسلطانه، فلم يكن فيها من الحشو والتعقيد وسوء التأليف ما صارت إليه بعد ذلك. ومع ذلك .. لم يكن الرازي إلا نادما في آخر الأمر.حيث نقل عنه بعض المؤرخين أنه اختبر الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فلم ير فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدها في القرآن الكريم .

وهنا يعلق «الأستاذ الصعيدي» قائلا: «لكن هذا لم يمنع من أتى بعد فخر الدين الرازي من المضى في هذه الطريقة التقريرية في التعليم والتأليف حتى غزت الفلسفة النظرية سائر علومنا ، وقلبت أوضاع سائر العلوم عندنا ، وضاعت بها عزة كثير من هذه العلوم كعلمي : النحو والبلاغة ، فرجعت بها إلى الوراء ، وكان الرازي هو أول من سن هذه السنة لمن بعده ».

إلا أن ابن خلكان يذكر في كتابه (وفيات الأعيان) أنه كان لفخر الدين الرازي يد بيضاء ، وأنه كان يعظ بالعربية والفارسية ، وكان يلحقه الوجد أحيانا فيكثر من البكاء ، وكان مجلسه بمدينة هراة يحضره أرباب المذاهب والمعتقدات ، فيسألونه ، فكان يجيب كل سائل بأحسن ما يستطيع ، وقد رجع بسببه كثير من الطوائف التي كانت تتحامى التأويل إلى مذهب الأشعرية . ولعل هذا هو التجديد الذي يعنيه الذين اختاروه واحدا من مجددي القرن السادس الهجري .

وبعد ، فإن غاية ما يقال في مجددنا فخر الدين الرازي ، أنه أراد أن يمثل في القرن السادس الهجري ما كان يمثله قبله حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري ، فندم مثله على انشغاله بالعلوم العقلية والفلسفية حتى إنه قال : «.. ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا ...» .

* * *